مسكن الأطفال

سحر ملص

دار البشير
للنشر والتوزيع

obeikandi.com

حقوق الطبع محفوظة

الطَّبْعَةُ الأولىٰ
١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(١٩٩٥/٨/٨٥٤)

رقم التصنيف : ق

المؤلف ومن هو في حكمه : سحر ملص

عنوان المصنف : مسكن الصلصال

رؤوس الموضوعات : ١-القصة العربية - مجموعات

٢-

رقم الإيداع : (١٩٩٥/٨/٨٥٤)

الملاحظات : عمان : دار البشير

* تم اعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

دار البشير

ص.ب (١٨٢٠٧٧) / (١٨٣٩٨٢)
هاتف: (٦٥٩٨٩١) / (٦٥٩٨٩٢)
فاكس : (٦٥٩٨٩٣) تلكس (٢٣٧٠٨) بشير
مركز جوهرة القدس التجاري / العبدلي
عمان - الأردن

Dar Al-Bashir
For Publishing & Distribution
Tel: (659891) / (659892)
Fax: (659893) / Tlx. (23708) Bashir
P.O.Box. (182077) / (183982)
Jerusalem Jewel Trade center Al-Abdali
Amman - Jordan

الإهـــــداء

أمي..

إليك أيتها الشعلة المتألقة في عالم البرزخ

وإلى أرواح كل الذين دمرنا مساكنهم الصلصالية.

سحر

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

obeikandl.com

العابث بالدمى

(١)

شكراً لك يا سيدي إذ بعثت السلحفاة من بياتها.....شكراً لك إذ حركتها من صدفتها الباردة وبعثت فيها دفئاً واعدتها للحياة.... للكتابة.....بعثت في قلمي الميت حياة فقام من تابوته النرجسي ليكتب.

(٢)

إن كان لن يجمعنا بيت واحد أو سرير واحد سيجمعنا لحد أبدي يبقى على مرّ الدهور، سأدخلك في لحد الكتابة حيث ستبقى هناك إلى الأبد مدفوناً تكبلك كلماتي.... وتتلفع بكفن حاكته مشاعري وتتوسد التراب..... إنساناً أصفر الوجه بارداً ليس في عينيك تعبير سوى الجمود ، وحولهما دوائر من القصص التي سطرتها يد الدهر.

(٣)

من أين أبدأ، من قصة أمة تقف خارج أسوار مملكته يكبلها الحب ويحمي عليها بأسياخ الهيام ويدمي معصمها وقدميها قيد ثقيل تجلس خارج مملكته بانتظار حكمه السامي فإما أن يصدر حكمه ويفك قيدها وتضم إلى أشيائه، أو تطرد وتبقى القيود تقرح يديها.

ويجلس جلسته المعتادة يقهقه هنا وهناك لا بل يتلذذ ويضحك ملء شدقيه إذ ينظر الحب يغشى عينيها وما بين الأيام والساعات يحلو له أن يدعوها لقاعة محكمته ليحقق معها.

ثم يعاود أعماله المعتادة وجنونياته التي لا حدود لها. ويتركها خارج الأسوار نهباً للبرد والليل الموحش، ويُطل القمر دامعاً على أمة جلّلها السواد ونامت خارج أسوار مملكته تنتظر القرار، قراره المعلن.

(٤)

وتبحر سفينتك عبر البحر وتبحر سفينتي حتى يلفع كل منهما الضباب ويتوه كل ربان فينا ولا نجد خيط الصلة بيننا وأسائل نفسي عما تراها اقترفته من ذنب حيالك؟ أراجع ذاتي ألف مرة ومرة ثم أقول:- لا بد أنك وردة حُرمت من كل شذاها وغطاها الشوك فبات الكل ينفر منها.....إني أتطلع إليك من طفلي الصغير...من كوته الطفولية فأراك كائناً بريئاً مثله، ولعلها امرأة تلك التي شوهت العالم وشوهتك صيرتك من عبقري صغير إلى إنسان حاقد مدمر.

(٥)

تبقى يا بحر شامخاً بغموضك وموجك الهادر.....تأتي إليّ أمواجك زاحفة فأسألها وأسألك ولا أجد سوى صمت وشموخ.

أُحدثك عن السّر فيك وعن الخلود....فتجيبني بهدوء إنك مجرد لجة ماء وأعلم أنك تخفي في جنباتك الشيء الكثير.

أعلم أنك غادر....أعلم أنك تجلس الآن بهدوء تحدق بي عيناك الزقاوان وكأنك لا شيء... تهمس أمواجك بكل اللطف... تتساءل...تبحث عن الشمس في قبة السماء ولكن اعلم أنك ابتلعت كثيراً من الضحايا وشتت الملايين من الناس وبقيت العينان الزقاوان تحدقان في قبة السماء العالية.

تجلس ضاحكاً...ليس لي أخطاء..... ضميري مستريح بينما أجدك قد شتتت مئات الناس وبعثرت أشلاء ضحاياك هنا وهناك ثم استلقيت مستريحاً تنتظر التهام ضحية أخرى.

وأعلم عندما تتصاخب أمواجك وترتفع إلى عنان السماء ثم تلف في زوبعتها ضحية أخرى دون أن ترحم تبتلعها في أعماقك وتعود لسكونك الخبيث المزعوم.

كف يا بحر من الشموخ... كف عن العبث واللامسؤولية.

(٦)

ثلاثة قبلي حاولن دخول مملكتك ولكنك طردتهن ولم يدخلن معك وخرجن نائحات، أما أنا فكنت أقوى الثلاثة... أقسمت ألا أدعك تنجو أقسمت أن أدفنك معي في نعش جميل لن تخرج منه أبداً...

ابتدأت الحكاية عندما قابلت الوجه الأصفر المضطرب والحديث الواضح..بدوت لي شاباً ولكن عندما تحدثت عن الثلاثة ظهرت كهلاً...وتلبسني حمى الفضول في سبر أغوارك، واقتربت منك أعريك وأعري ذاتك.... كنت واثقة أني سأخرج منتصرة.

اقتربت منك محاولة سبر أعماقك... أعبث بعينيك حتى أتسلل إلى ما وراءها: وفجأة تسللت النار إلى روحي... فجأة وجدت ذاتي تكتوي بحمى سعيرك ولهيبك وابتدأت لعنتك كلعنة توت عنخ آمون تتلبسني.

رحلت الى البحر أنشد راحة وخبأتك معي حملتك إلى هناك طيفاً وضعتك بين ثنايا كتابي الصغير وفي الليل أدخلتك إلى عالمي... كنت أتساءل ترى هل سأسعد رجلاً في الأربعين؟ هل سأغسل جراحه؟

هل سأعطيه راحة؟ ورحل خيالي وراء البحار... تصورت نفسي وأولادك بانتظارك لنحمل عنك عبء أيام متعبة قاتلة.

تساءلت هل سترسو هناك سفينتي الضالة؟ وزادني لوعة ما قرأته عن البحر من فكر برناردشو. كنت قوية على البحر مرحة... ظننت أني قوية إذ ليس في العالم أقوى من اتحاد رجل وامرأة. ثم عدت إلى بيتي وأدخلتك الى

مخدعي....أدخلتك الى معبدي الذي لا يدخله أحد إلاّ إذا شرفته وصيرته طيفاً وظلاً يدخل في دمي وخيالي إلى معبدي.

كنت أفكر فيك... أفكر في رجل غربته الوحدة كما غربتني.

ألف صورة وصورة تخيلت... وألف حديث وحديث إليك تحدثت.... ضحكت عيناي... ورقص قلبي.... أتراني وجدت ضالتي؟

هل أشعلت منارة لتهدي سفينتي؟

هل سيرخي ربان حياتي اشرعته فقد وصل الميناء بسلام.... طلع القمر... وأضاء بحر حياتي، وبت أشعر ظلمة البحر نوراً، وملحه عذباً، رقصت طرباً.... وشربت خمرة النصر... ابتدأت سفينتي تبحر صوت منارتك حتى إذا اقتربت منها بل اقتربت منك ومددت يدي لتصدم بجدار بارد رخامي الأعماق، راعني ما رأيت لقد نجحت في إجراء عملية لك لطالما تمنيتها لذاتي.... نجحت في استئصال قلبك وعواطفك وبت انساناً حجرياً لا تهزه العواصف...

وأدركت فداحة فعلتي ... لم تكن أنت منارتي.... وبحثت عن الضوء الخافت فيك.... عله يهدي قليلاً سفينتي بحثت عن القمر الذي آنس في ظلمة البحر وحشتي.. ولكن لم يكن سوى انعكاس مصباح سفينتي عكسته الأمواج وضخمته، أما المنارة فلم تكن سوى صخرة كبيرة راسية على البحر لا تزحزحها الامواج... وارتفع زئير البحر وعواء الريح وعاد الموج يسخر من سفينتي ويدفعها بين الأمواج المتلاطمة ووقفت صخرتك تحدق بي في ظلام الليل البهيم.

(٧)

وتسافر يا سيدي بحثاً عن تلك الدّمية التي شقيت بحثاً عنها، ولعلها ليس لها وجود إلاّ في خيالك.

تعجبك واحدة، إنها تمثال للجمال والفتنة، شقراء باهتة عيناها زرقاوان كماء البحر الصافي، تأخذها بين يديك وتلهو بها ولا تفكر أبداً في أية نتيجة. وتصبح أبا لطفل ثم طفلة، آه ولكن هذه الدمية مملة ولم تسأل عنها عندما ابتعتها من سوق النخاسين لتضمها إلى مملكتك الصغيرة....

والثانية أنها جميلة تذهب إلى سوق الأغنام وتتفحصها لاشك أنها جيدة للأكل، تدخل مزاجك وعقلك تمتلك عليك كل حواسك فتبتاعها والحصيلة طفل شيئ عابر في حياتك.... ماذا يضير؟ ثم تملها.

ستة أشهر كافية لتلهو بأجمل دمية.. إنها شاة دخلت مملكتك، وكيف لشاة أن تنعم في ظل مملكة أكثر من ذلك.

وتبحث عن الثالثة دمية صامتة تشتريها من سوق الدمى محنطة جميلة وتدخل الى القصر فلا تنعم بين عبيدك وأشيائك إلاّ لبضعة أشهر.. دمية تُعصي أمرك... دمية كاذبة... ويأتيك طفل صغير ولكنه شيء عابر ستدفع له ثمن عبوديته وتمل الدمية الثالثة فتتركها أوقل تحطمها وترمي بها مع مهملات العالم القذرة، وتندب حظك العاثر الذي لم يرسل لك إلاّ دمى تملها.

تشقى بحثاً عن الدّمية التي في مخيلتك تلك الدمية التي أشقتك في الطفولة، كنت تراها في الحلم وكانت تعذبك، ثم تصحو من نومك محاولاً اللحاق بها.... لا بل تركض من سريرك الصغير وتذهب صوب الباب لتأتي أمك لترى ماذا أصاب الصغير، فتضمك إلى صدرها وتجدك باكياً. العينان الزرقاوان مغرورقتان بالدموع وخصلات الشعر الشقراء تغطي الجبين... تحدثها بصوت خافت مضطرب وتدفن رأسك في صدرها لقد ذهبت... ذهبت الدمية.

تبدأ تواسيك: سأشتري لك أجمل دمية في العالم.. وبالفعل تبتاع لك واحدة تعبث بها وفي آخر النهار تحطمها، حتى إذا جن الليل أتتك دميتك

اللعوب تقهقه أمامك. تحاول الامساك بها ولكنها تهرب منك ويشقيك الحلم الطفولي...تكسر كل دمى الطفولة وتبقى الدمية الصغيرة تزورك في النوم... تكبر... ويكبر الحلم وتقاطعك الدمية. تبدأ بالبحث في الدمى الآدمية حتى إذا أتتك إحدى الجواري، تجلس لتقهقه أمامها ملء شدقيك عابثاً بها وبعواطفها تماماً كما عبثت الدمية الصغيرة بك في طفولتك.

تقضي الليل وحيداً، ويزحف الزمن بغباره الثقيلة على جسدك وعقلك.... تكبلك الشيخوخة وتقيدك الوحدة وتزحف إليك اشباح ضحاياك.... تنادي في الليل ولكن ما من مجيب.... تسأل عن رفاق الطفولة أولئك الذين حطمت دماك أمامهم وبمساعدتهم ولكن رفاقك مضوا الى سبيلهم كل منهم قد جلس في عشه مع آدمية وأنت ما زلت تتجرع كأس المرارة. وتهذي.....تهذي يا سيدي تصيبك حمى الهذيان.... تحلم بكوابيس وأشباح ثم يأتيك شبح أربعة أولاد يحومون حول السرير تمد يدك... ليمسكوا بها ولكنهم يلقون اليد التي تركتهم في الطفولة هاربين الى عالمهم تاركينك وحيداً تعاني من الحمى والسهر، وتستسلم للبكاء بكاء ممض كما كنت تبكي في الطفولة... وتبحث عن صدر أمك لتدفن رأسك فيه علّها تخلصك من كل الكوابيس.. وتتمنى أن تخلص من هذا الحلم والكابوس المزعج ولكن هيهات.

إنها الحقيقة يا سيدي ليس هو بحلم كما في أحلام الطفولة. بل هو واقع وقدرك الذي نسجته بيديك... لقد ذهبت تلك الأم حسرة على صغيرها الضائع.

حتى إذا تنفس الصبح أتتك الجارية... أتتك تلك التي منحتك حباً حقيقياً لتجدك في عذابك المرير وقد تخلى عنك الأهل والخلان، تستأذن في الدخول لتجدك معذباً، وتأخذ رأسك وتدفنه في صدرها الأسود: تمسك بها... تتشبث بثوبها...أتراها أمك...؟ كلا.. أتراها دمية؟؟ كلا..

إنها إنسان حقيقي مفعم بالحب والحنان، قلبها نابض يبث حباً ودفئاً مع تسلل خيوط النهار الجديد.

(٨)

ابحث عنك ما بين حبات المطر المتكاثفة أبحث عن وجهك الضائع في سواد الليل المدلهم، وأتستر بجناح الليل وآتيك رغم عويل الرياح وحبات المطر... آتي إلى عشك فأجدك نائماً وغائصاً في بحر متاهات السفر... يتعبك العمل، فلا تجد صدراً تستريح اليه، بل تعانق أحلامك وأشباحك.. أطرق نافذتك فلا تسمعني وأكرر الطرق.... ثم أرسل روحي تتسلل عبر نافذتك الموصدة، لتصلي من أجلك وتطوف حول جسدك المتعب وشعرك الأشقر.... تظل تحرسك تتأمل في وجهك... أفكر في أن أرخي رأسي على صدرك أوسده هناك علّة يستريح كطفل صغير أضناه التعب، والسهر، وطال بحثه عن أمه الضائعة حتى إذا وجدها تشبث بها ودفن رأسه في صدرها.

وأقف متوسلة متبتلة أن تسمح لي بفسحة من السرير أوسد جسدي وروحي الشقية فالبرد قاتل. وبرد الوحدة مدمر... دعني هناك أستريح... دع قلبي الهائم يأوي الى عش بحثاً عن الدفء والحنان.

ويبكي قلبي الصغير... يبكي مسترحماً. عذراً يا سيدي فقد بت مشتتة وأنت أيقظت قلبي من سباته.... أيقظته في ظلمة الليل ثم تركته بين الأشباح... ما زلت جاهلة لماذا أيقظت قلبي.... لماذا لم تدعه غافياً تحت غصن شجرة النسيان..

أحاول الهرب منك الى الناس والمجتمعات، ولكن في كل مكان ترتسم لي ويطل وجهك من بين زحام السيارات وحبات المطر... وتمرض روحي، أصاب بسقم وليس في حياتي سقم أمضّ من سقم الحب، يقدم لي كأس في ظمأي الشديد ويقربها الى شفتيّ فأجد أنها ليست الماء العذب فحسب

بل البلسم الشافي لروحي. وعندما أبدأ بارتشاف أول قطرة يسحب من يدي الكأس ويتركني ظمأى بين رمال الصحراء.

ولا أسمع سوى صدى ضحكاتك تقهقه وسط جدران حياتي تكبر أكثر وأكثر.

غداً ستترك عمان الباردة الى ألمانيا حيث الثلوج لتبحث عن خليلة هناك وستجد واحدة بل أكثر. تجد دمية تمنحك الجنس خالياً من الحب فتشبع نهمك، تبلل شفاهك بالماء دون أن تطفىء ظمأك.. ليس الماء الذي شربت سوى كأس مليء بالشراب وليس فيه من الماء العذب شيء.؟

وتتراكض من حضن خليلة الى أخرى كلهن يعطينك ما تريد لأنك تدفع ما يردن.

شهر سيمضي.... وعمان موحشة، والبرد قاتل، وروحي هائمة بين عشك وكهفي المتلاشي، ولا أملك سوى دمعة تفيض بكل ما في قلبي من لواعج ومشاعر أسكبها على وجهك الغارق في السبات.

(٩)

وفي الليل حنت على روحي العليلة أطيافه وأتتني زائرة... تكحل عيناي بمرآها، وتمنيت لو أن الليل يطول أجيالاً لأبقى أسيرة طيفه... وعند الصباح كانت جراحي النازفة تئن لا يداويها سوى حنو بنفسجي لصديقتي البنفسجة التي نامت تحتضن قطرات الندى حتى إذا أطلت الشمس متهادية أوسعتها قبلاً. وتساءلت أيعقل أن يطّل الربيع علي وبنفسجة عمري ذاوية سقيمة؟ ألن ترتشف من قطرات الحب فيرويها... أليس الماء والحب حقاً لكل المخلوقات... فلماذا حرمت بنفسجة ذاتي من حقها الطبيعي؟

(١٠)

افتح نوافذك يا سيدي وأخرج من قوقعتك وأبحث عن الحب

البنفسجي، كفاك تقبع خلف الستائر الرمادية الثقيلة. كفاك تعيش بين أوهامك وكوابيسك..

دعني أمُسد قلبك بالحب البنفسجي... دعني أحيطك بشرنقة من الحب الشفاف لا تخرج منها أبداً إني أحبك.. أحب طيفك أحب صوتك وحتى عبثك وجنونياتك.

(١١)

لن تبقى سماعة الهاتف باردة بلا حرارة.. ولن يبقى السرير بارداً برودة ثلجية، كلا فآخر نهار من الشهر يلوح بالنزاع، ومعنى ذلك أنه انقضى شهر يا سيدي ويجب أن تؤوب الى فراشك إلى بيتك الى الأباجورات المسدلة والسيارة الواقفة أمام الباب بيضاء باهتة والكلب المنقلب رأساً على عقب داخلها...

سترجع من هناك ثملاً من الجنس والنساء... لا بل أجد في عينيك شوقاً وجوعاً الى الوحدة الى التوسد في السرير ولكنه بارد جداً...

شهر مضى دون أن يضم بين طياته جسداً بشرياً.. تدخل الغرفة وأنت تراجع رحلتك وأيامك الخالية ما زالت عينا (ماري ماثلتين أمامك بزرقتهما المميزة، وشعرها المنسدل على كتفيها... وجسد سوزي الأبيض الطري ودلالها وغنجها...

تتمطى وأنت ترتدي سُترتك الباردة وتدس جسدك تحت الغطاء، ويأخذ شريط الذكريات يمر سريعاً.. تمتد يدك تحت الوسادة علها تصطدم بجسد أنثوي عار ترتشفه كفنجان قهوة عربية فيخفف من تخمتك الجنسية.

وتعبث يدك هنا وهناك ولكنها تصطدم بجسم صغير بارد... تتحسسه بتوجس. ما هذا؟ شيء بارد صامت ... تحدق إليه إنه أملس لزج... تنظر اليه عبر الضوء الخافت فلا ترى سوى دائرتين سوداوين ترحلان بك بعيداً

الى حيث ثلاثة أشهر مضت يوم دخلت مستنقع الحشرات ناظراً وباحثاً... يومها تجرأت إحدى المخلوقات التعيسة وقرضت أصابعك لسعتها بشدة... ما هذه الوقاحة؟ حشرة صغيرة تفعل بك هذا؟ يا لها من مخلوقة تعيسة وأقسمت على الانتقام بأن تسحقها، ثم أرسلت من يطلبها الى مائدتك الكبيرة... أجلستها هناك على شرشف الطاولة الأنيق... جلست تتناول طعامك بأناقة... عالم الحشرات يا سيدي لا يعرف للشوكة والسكين معنى بل يقتات على الفتات والقاذورات المتناثرة في الطرقات، حلا لك أن تمد شوكتك، بقرف بالغ ورحت تقلب الحشرة تعبث بها، كلما أنهضتها أوقعتها مرة أخرى.

أعبث... أعبث يا سيدي!! ما هي إلاّ مجرد حشرة تافهة تُرى الحشرات تفكر؟ كلا لا يعقل ذلك فالحشرات ليس لها عقول أو عواطف.

أليس هذا ما علموك إياه على مدار سنوات... أي عالم أدّعى أن الحشرات تفكر؟ كلا... أبصق عليها مزقها... انزع يداً أو رجلاً إنها حشرة تافهة قرفت منها وأثارت اشمئزازك... تركتها على المائدة وسرت بقرف بالغ.

وفي احدى الأمسيات الباردة فتحت الباب لتجد تلك الحشرة قابعة هناك أمام الباب جاءت لتثأر لكرامتها.. نكتة سخيفة... هل لهذه الأوساخ والأشياء كرامة؟ أي حشرة وقحة تلك وألقيت بها بطرف حذائك الأنيق الملمع.

ولكنها عادت لتبحث وتبحث أتت الى البيت البارد، دخلته ومكثت هناك شهراً في الفراش منتظرة. يخطر ببالك أن تسحقها بين يديك ولكن قرفاً يصيبك... ستقتلها بمبيد حشري فموت كهذا أكثر اناقة وإن كانت لا تستحقه ولكن حفاظاً على مشاعرك المهذبة ولا يجوز لسيد مثلك أن يقتل دون تهذيب. الليلة يا سيدي تصفية حساب.

(١٢)

ألو... ألو... يردد الطرف الآخر تصمت كلماتي... تتململ في بحار أعماقي.،.. تتحرك أوتار حنجرتي ولكن ريقي يجف وتتجمد الكلمات على شفتي... كلا لن أجيب ولن أتحدث سأدع كلماتي مخنوقة الى الأبد... لماذا أوقظها؟ لماذا أوقظ من مات منذ أشهر وأجد ذاتي عابثة... دعيه يركض.... دعيه يرفع السماعة يتحدث... ينادي...

ألم يجبرني أن أجهز نعشاً جميلاً وسدت فيه مشاعري؟ ألم يجلس قبالتي ويتركني أحرق عواطفي ثم أدفن رمادها في ذاك التابوت المخملي؟ ألم أقسم أن أترك كل المهن وأمتهن مهنة الحانوتي لأصنع توابيت مزينة تليق بأصحابها ثم أدخل رأسي في كل تابوت وأخفي كلماتي بين زواياه لتنطلق بعد أن يغلق النعش على الميت!!.

(١٣)

يئست من صوتك الميت... معقد أنت... تجلس وسط الغرف وقت الأصيل... تنحر ذاتك.. صدقني.. أنا لا أفكر فيك لا سلباً ولا إيجاباً ولن تستحق أن تقرأ كلماتي...

تمنيت للحظة واحدة أن أسمع في صوتك صوت حياة أو صوت دافيء... ولكنه بارد... وبارد جداً.

بالأمس شاهدت شخصية ميتة وكم من النفوس نراها بلا حياة تنبعث فيها. صدقني أنني أتساءل باستمرار لا يمكن أن يولد حي من ميت إلاّ فيك فقط فقد ولدت حياة في قلمي من إنسان ميت حتى أن لسانك لا يقوى على حمل كلماتك.

قالوا لي أنك معقد.. ولكني لا أريد تثبيت ذلك، لأني لو، فعلت لاعتبرت نفسي امرأة تحاول تبرير فشلها. ولكني حقاً مصابة باشمئزاز لا حدود له. تُرى منذ متى مُتَ. لا أعلم؟ حقاً لا تقاس الحياة بالأيام التي

نعيشها فأنت تعيش بقايا أيام لك... حاقد أنت ومسكين حتى صوتك كرهته... كلا لم أكرهه ولكني اشمأززت منه.

(١٤)

أسفت لك يا سيدي حين أدركت أنك ميت منذ أمد بعيد... كنت أعتقد أنك حي وأن كل ما يجري من طقوس إنما هي لإنسان آخر... ماتت نفسك منذ اغتلت فيها كل الحب، والعطر وبقيت تمثالاً أبيض كالشمع لا حياة فيه.

ميت أنت يا يحيى برغم وجودك الجسدي في كل مكان... ميت برغم حياتك المزعومة... ميت برغم اسمك وما يحمله من معنى الحياة.

ميت منذ زمن سحيق منذ قتلت فيك امرأة كل العواطف، ألجمتها وأسرجتها بسرج حديدي منذ أودعتها في صندوق النسيان وألقت بها الى قاع الظلمات.

والآن أنا أزور قبرك أتلو لك بعض الآيات وبعض الدعوات لعلها تخفف عنك كما ندعو للمقبور حتى يخفف عنه العذاب.

آياتي بلسم أرددها على جسدك المدفون. ألم تدّع أن حاجتك جسدية! إذن ميت أنت يا يحيى وما بقي إن هو إلاّ جسد لا يسمن ولا يغني من جوع. ولعلي أبحث في طوافي عن روحك المتحررة والهاربة منك فألقي القبض عليها حتى أعلمها العشق والحب، وأبقي لك في الأرض جسدك الشمعي تفخر به أمام المجتمعات وأصحاب الألقاب ورؤوس الأموال حتى تجد دمية ترافقك الى الصالونات المخملية دمية تليق بالجسد الشمعي الأبيض.

(١٥)

مررت اليوم قرب معبدك... وقفت قليلاً وفتحت باب القفص لقلبي المحبوس... توقعت منه أن يرفرف ويرقص طرباً في القفص.. لا بل يطير منه

ويدخل معبدك.. ولكن يا لخيبة أملي فقد بقي الطائر الأبيض نائماً وكأنه ميت مسجى... حاولت أن أشدو له عله يفيق ويتذكر أسره، ولكن صوتي لم ينطلق والطائر لم يتحرك، ولم أجد وسيلة سوى تحريك باب القفص لعلّ صوت الباب يوقظه ولك الطائر بقي في سباته وأدركت آنذاك أن عليّ أن أوصد باب القفص وأبقي الطائر في سباته.

(١٦)

ترددت في أن أكتب لك... ترددت في أن أنبش قبري وأخرج ما دفن فيه... ماذا يقول الناس عن نائحة تجلس لتنبش القبور وتخرج ما بداخلها؟؟

ولكن الميت كان حياً وملأ الدنيا صياحاً. أو تصدق أني أقدم لك ذبالة حياتي... أياماً عشتها تراقص فيها الحب واتقد واحمر خداي من حرارته وتململت القطرات في جسدي وكبر الحب... بركان من الحمم في داخلي ظل يشتعل أكثر وأكثر حتى انفجر... تصاعد الى السماء.. ألقى حمماً ألقى ناراً ثم خمد... صار رماداً.

أسائل ذاتي لماذا سافرت في هذه المتاهة ما الذي جعلني أقع فريسة حمى لحياتك لا شك أني لو حاكمتك عقلانياً لما وجدت فيك شيئاً.

ولو أعطيتك كلماتي لأخذتها بإهمال وألقيت بها في إحدى الأماكن المظلمة... شيء مهمل هناك.

أفكر فيك كيف ستضحك... كيف ستشمت بل كيف ستسخر مني ومنها.

وأذكر لحظه أجلستني على كرسي الاعتراف. وكان أول تهمة وجهتها الي وحققت بها معي... وجهت التهمة الى قلبي وسألته هل أجرم ونبض؟ وعرفت من سؤالك وسخريتك كأنك تريد جمع كل قلوب الأحياء لتحرقها معاً ثاراً لقلبك الذي أحب مرة ثم أحترق ومات هناك متناثراً على الرماد.

ما زلت أذكر أول تهمة وجهتها الي ولا ألومك فهذه أول تهمة توجه للأنثى وهي تتجه الى قاعة محكمة الزواج العربية.

ما يحيرني الآن أن ماذا سيقول المحقق التالي الذي سيأتي بعدك، إن قدّمت له أوراق إدانتي وأعلمته أن قلبي عاصٍ ومذنب؟ هرب مني وتمرد علي وأحب رغماً عني وحلق في سماء الأحلام وتلألأ أكثر وأكثر تلألأ في ظلمة حالكة في سواد مقيت ثم تهاوى كنجم وانطفأ.

(١٧)

أبحر في صوتك... في بحر النسيان... أصادف وجهاً مقتولاً... أصادف رأساً مقطوعاً أبحر وسط بحر ضبابي وسفينة كلها آلام... أبحر عبر الماضي. لك ألف شخصية وشخصية... شخصية المجنون وشخصية التائه... وشخصية المعقد... لا بل أنت الإنسان الحاقد المدمر... الإنسان القوي والإنسان الضعيف. تجرني خلفك الى سراديب، ،وكهوف مظلمة، الى منزلقات رطبة... حتى إذا قطعت شوطاً وغرقت في الظلام زلزلت تحت قدمي أرضك.

وأبحث في الجثث العفنة أبحث في الجثث المقتولة عن بقاياك.. لعل بها حساً ولعل بها روحاً.. أبحث في الجثث المشوهة.

أستخرج من الأولى إنسانك المعذب... ومن الثانية إنسانك المصلوب... ومن الثالثة إنسانك الحاقد... والرابعة المدمر... والخامسة المشوه أسحبها من بقايا الجثث الميتة وأبحث عن جسد يتسع لها.. لكل هذه لنزوات التي عاشت وعششت فيك. ولا أجد جثة تتسع لها بل إن الجثث تهرب منك خشية أن يتلبسها إنسانك... خشية أن تتغلغل إليها صفرة وجهك... صوتك الميت النازف ببطء.

تهرب الجثث وتبقى أشباحك العفنة معي على الأرض المزلزلة تتصارع أشباحك... تدور حولي تخنقني كابوس يجثم على صدري.

تجرني أشباحك الى الكهوف المظلمة أكثر.. أصادف عناكب مشنوقة في خيوطها وأصادف مُقلاً مقلوعة من محاجرها وفي إحدى الزوايا أجد ذاتي مصلوبة هناك.

(١٨)

أرثي لك يا يحيى...

كم يشوهك خيالي مع أني تركتك في ساحات الزمان وانسلخت عنك.. إلاّ أنك ما زلت تأتيني في النوم زائراً...

وفي كل زياراتك أجدك شخصاً مشوهاً. للحظات ترعبني وللحظات تستدر شفقتي... ولكن دوماً أستيقظ متسائلة؟ لماذا تأتيني صورتك هكذا..

قبل أيام استيقظت مذعورة بعد أن حملني الحلم الى حيث أُلاحقك.. تصعد السلالم وكأنك في غيبوبة فكرية ليست معي، أحاول كثيراً أن أقدم لك أوراقي.. كلماتي ولكنك تبعد وأُشاهد صديقك ليخبرني أنك معقد ومريض نفسياً.

والليلة أجد ذاتي أراك أضعف مما رأيتك في المرة السابقة مشلول الساقين ضعيف البنية.... أقترب منك فتحقق في مشاعري. أعترف بحبي لك فتطرب وتطلب مني اعادة ذلك... ولكنك تبقى مشلولاً تبقى مشلول الساقين...

والآن سأرحل يا يحيى... سأرحل الى تابوت آخر... لن أنقلك معي، ولن أنقل جسدك وكيانك الى التابوت الجديد الذي سترحل إليه كلماتي... سأبقيك هنا وأقفل عليك... أنت من الزمن الغابر، سأبني سداً منيعاً من الحديد...

لا تلحق بي يا يحيى... لا تترك روحك المعذبة الميتة تلحق بي وتتعشقني.. لا تنسج خيوطك حولي، أنت هنا ميت إلى الأبد.

* هذه أول قصة كتبت بشكل فعلي وقد نالت جائزة القصة القصيرة في رابطة الكتاب للأدباء الشباب عام ١٩٨٧.

obeikandl.com

جـــــروة

بعد قليل ستغلق المدينة أبوابها أمام القادمين والغرباء.. ثم سيطفئ قنديل الساحة الرئيسة... معنى ذلك أنه لو أتى قادم غريب لتاه في الطرقات المتعرجة، وسيسرع الرجال الى منازلهم حيث الأطفال المنتظرين خلف الأبواب والزوجات المتلهفات... وبعد ساعة أو أقل ستطفيء أمي قنديلها وتترك الأدام والرغيف بانتظاري.. ثم تسحب مئزرها على رأسها وتغفو تحت اللحاف... تتنفس بعمق.. والمائدة التي أعدت لي عاث بها قط هرم..، في السماء دوائر غير مكتملة كرسم صبيّ... إنه القمر لكنه أصفر اللون هذه الليلة.. وهالة ضبابية تحيط به، كأن الغيم يمر للحظات يلعق نصفه ويمضي...

على الجانب الآخر تقبع صفصافتان يجلس بينهما قط بانتظار بقايا رؤوس الدجاج المذبوح يُلقى إليه.. ومقابل ذلك تماماً أقفاص الدجاج المضاءة بقنديل أصفر يتدلّى أمام الحافة الممتدة لدكان بائع الدجاج... وبين الحين والآخر يسمع رفيف دجاجة فزعة وقد امتدت إليها يد بائع الدجاج مثل قدر لا يخطئها يقودها الى الموت حيث تذبح، وفي لحظات تكون بيد زوجته التي تقف خلف الحائط، تغطس الدجاجة في الماء الساخن وتديرها على آلة النتف لتخرجها جثة عارية ساخنة الجلد...

بحذرٍ تدرك الدجاجات أن خمس دقائق لا أكثر هي ما يفصل بين موت الواحدة والأخرى ويحدجن أعين القطط بغيظ كبير، إذ بعد لحظات ستكون رؤوسها بين فكيه... ثمة غراب قد ضلّ طريقه إلى البيت لينعق وهو يطوف في دوائره الليلية على أشلاء المكان الممتدة تحت ضوء القمر

الخافت... إنه يذكرني بجروة... وبكل ما جرى.. هذا الغراب الذي راح يجمع كل هذه الوجوه الكثيرة في ليلة من ليالي ادغار بو.. جروة ما زالت تهوي في أعماق البئر ولم تستقر.. الخفافيش التي طفرت في وجهي ما زالت تطاردتي حتى بعد جنوحي للمغيب.. ما زلت أسمع صوت الغراب الذي كان يرافقها... وأشتم رائحة الحنظل المتكوّر على رمالها الصفراء.. قطعت دراستي في الولايات المتحدة وذهبت الى مصر إلاّ أن الصحراء كانت نهاية رحلتي حيث التحقت بالجيش!

دخلت الى السرية للنوم كانت الخيمة خاوية.. إذ أن زميلي في إجازة.. مكثت وحدي... سحبت البطانية السوداء من على السرير.. اطفأت الضوء وألقيت جسدي المتعب.. وضعت رأسي على الوسادة... سمعت مواءً خافتاً... أصغيت، لا شك أنه شبح جروة الذي يطاردني... غطيت رأسي بالبطانية اشتد صوت المواء... عرفت أنني دخلت في نوبة الكوابيس.. ضغطت على رأسي بكلتا يديّ.. ازداد صوت المواء لم أستطع كبت بكائي.. انطلقت نوبة مواء حادة يتخللها موآت ضعيفة.. مو..مو..، تذكرت المرأة المصرية التي سافرت إليها بعد موت جروة... كانت تريدني بكل قوتها وكنت أريد أن أنسى... كان جسدها سكني وراحتي!

إلاّ أنها كانت تعذبني بالقطط... وكنت أرى في وجه كل قطة عينا جروة.. وجسدها الهاوي الى أعماق البئر... وعندما كنت أذهب لبيت المرأة المصرية.. أجد قطة صغيرة تموء تكون قد دستها في فراشي.. فأترك السرير وألقي بنفسي في إحدى زوايا بيتها باكياً... وامتلأ جسدي بالحب والبثور وفي أحد الأيام عندما تسللت من بيتها شاهدت سلحفاة مهشمة الظهر وقد سالت دماؤها بعد أن تحطمت القوقعة.. (ستقصم ظهري يا بني من جرّاء حبك لجروة.. قالت أمي) ولكنني أحبها برغم العداوة التي بين أبي وأبيها.. ورغم كل الثارات المهترئة بين العائلتين... وأقسم أبوها على مسمعي أن يقتلها ولا يزوجني إياها...قلت ذلك للمرأة المصرية ولم تقل شيئاً سوى أنها أتت بقطة صغيرة في الصباح تلعق قدمي...

لو كان معي زميلي لخفف من هذه الكوابيس.. سمعت صوت هرهرة تحت السرير.. نهضت أسرعت الى غرفة قائد السرية لاهثاً... أتوسل إليك يا سيدي ثمة هرهرة ومواء تحت سريري... وضحك وتشنجت، وقرأ رعباً قاتلاً في وجهي... غير أنه تذكر حكايتي ثم رافقني الى الخيمة... أضاء النور وطلب مني أن أمد يدي.. لكنني ترددت فنادى على الخفير..

– انظر هناك...

مد الخفير يده وصاح كأنما وجد كنزاً...

– يا الله إنها قطة السرية وقد ولدت ست قطط صغيرة.. ها هم بعيونهم المغمضة...

وصرخت إذن سبعة وجوه لجروة تنام في عيون القطط الصغار وأمهم، وسيراها الجميع... ورفضت أن يراها أحد في عيون القطط... وتوسلت الى أبيها الذي صرخ في وجهي، أغرب أيها القذر لن أزوجك منها... وكنا نلتقي قرب البئر الغربي. حيث الحجارة وبركة الماء الصغيرة التي خلفتها الأمطار... وأسمع أحاديثها التي تنزلق على جدران البئر... حيث هديل الحمائم... لكن بعد أن ماتت جروة لم أسمع سوى صدى صوتي...

وحتى عندما شبت النار في جسدي في إحدى المناورات في الصحراء، هربت من باب الخيمة وركضت مثل حيوان يحترق وأنا أصرخ باسمها... جروة...جروة... وكانت المرأة المصرية تلقي القط في وجهي... كان شبحها يطاردني عبر دخان احتراقي... الهارب تحت شمس الخلاء... اقترب مني أحدهم ولفني ببطانية...وفي المستشفى كنت أصحو على مواء وألسنة القطط تلعق جراحي.. لكنني كنت أنادي جروة...جروة... وظنني الطبيب مختلاً فأتى لي بجروة جميلة كي تسليّني... أجهشت في البكاء ثم حولني الى قسم الأمراض العقلية.

ولما سألني الطبيب النفسي... حدثته بقصة بائع الدجاج وكيف كنت أقف عنده في صغري... أرتعد من البرد وأراقب سكينه الحادة تلوح خلف القفص... بانتظار دجاجة أخرى وأتخيل نفسي إحداها... ثم أحدق بالقطط التي تلعق المصارين بشراهة حين يقذفها لها في الطريق... فأتخيلها فوهة البئر التي التهمت جروة وحكايتي معها!. كنت أحبك يا جروة.. وأحب حديثك الشجيّ عند البئر... حيث كنا نجلس نستمع لهديل الحمام الصاعد مثل صلاة من أعماقه السحيقة، الآن جفت البئر وأصبحت مأوى للخفافيش والغربان... شددت على يد جروة... لأول مرة تدفن رأسها في صدري.. شعرت به حاراً... مررت بشفاهي على ضفائرها... اضطربت مثل حمامة... شددتها إلى قلبي كدت أدخلها هناك. لكن في اليوم الثاني... عند العصر... وبعد أن لجأ الناس لبيوتهم بعد يوم مطير... ذهبت الى البئر استرجع ذكرى لقائها... كانت برك الطين تملأ القرية... والريح ساكنة... انقشعت الغيوم للحظة وارخت الشمس ضوئها الخافت على التلال.. شعرت بخوف أسرعت.. لمحت طرف ثوب امرأة عرفته من القرنفلة المطرزة على ثوبها... اقتربت من البئر ثمة صوت يهوي الى أعماقه الباردة... أكرم... أكرم...طار عقلي ركضت وراءها... جروة...جروة...جروة.. رددت أصداء البئر صوتي... لمحت عباءة سوداء وشبحاً يهرول ما بين الجدران. لم أتبينه لكنه اختفى وبلحظات اجتمعت القرية حولي... وأشارت أصابع الاتهام بأنني قاتل جروة..

لم أتحدث سمعت نفسي أموء... أعوي... وأعوي.. ثم هرع الرجال يمسكون بن قبل أن أُلقي بنفسي وراءها.. واتهموني بالجنون... وغطس الرجال وراءها لكنهم لم يجدوها ثم أتوا بأمهر الغطاسين من المدينة.. عبثاً.. ونزل عمّها الذي كانت تحبه وتحاول أن يكون واسطة خير كي يتم زواجنا.. وطارت الغربان من أعماق البئر.. وتجمعت حول الشمس في دائرة سوداء كأنها رقصة مأتميّة خالدة.. ثم نادى من قاع البئر أنه بحاجة

الى حبل وبطانية.. وطال الصمت.. كان كل من في القرية يحبها... نادى من قاع البئر مرة أخرى... سحب الرجال الحبل... بعد لحظات سأراها... وقد تجمدت شفتاها على آخر حرف من اسمي.. لكن الشرطيّ كان قد وضع قيده في يدي... واقتادني الى مكان بعيد...

هل كانت مغطاة..؟ هل تدلّت ضفيرتها المبتلة الى الأرض...؟ بعد أن أثقلها الطين..؟ هرول الرجال الى البيت.. لو تركوني ألقي عليها نظرة أخيرة... وعلا نعيق الغربان... أمامي مرت قطة.. وكان الشرطيّ يقتادني عبر نسمات العصر الباردة.. في المستشفى كان الممرض يحقنني بالأدوية المهدئة كي أكف عن العواء... كنت أرى القمر.. لم أره مكتملاً قط.. كان مواء القطط يلاحقني.. وظل يحقنني بالمخدر.. وأحس بنفسي في كيس من الخيش كأنه البئر الذي سقطت فيه جروة.. نظرت من النافذة.. لاح لي القمر شاحباً.. من خلف الصفصافتين.. ألمح قفص الدجاج.. كان فارغاً... والسكين ما زالت معلقة خلف قضبانه الحديدية وشبح زوجة بائع الدجاج يتوارى خلف الحائط، الدكان فارغة... البئر فارغة إلاّ من صوت الحمائم التي رفّت حين ارتطم جسد جروة بالماء.. اتطلع الآن من النافذة... لعل لمدينة قد أغفت..؟ وأغلقت أبوابها..؟ وانطفأ القنديل استسلمت أُمي... خرجت لخفافيش من البئر تحوم.. أتطلع من نافذة المستشفى.. ثمة أنشوطة.. إنها مصنوعة من جدائل جروة.. أحدق أكثر.. لا.. إنها ليست جدائلها.. إنه الدخان الكثيف المنبعث من جلدي الملتهب.. المواء يلاحقني.. أهرب باتجاه البئر الغربي.. الممرض والطبيب يلاحقاني حيث كيس الخيش الذي سيضعاني فيه ليكون مستقر جنوني وهذياني أو لعله بئر الصمت الذي تسكن إليه الأرواح بعد نشيجها في الجسد.

١٩٩٢م

العجـــوز

شمس الخريف تتلألأ في كبد السماء حانية خجول... ثمة رمانة منفلقة معلقة بالغصن الأصفر المُحمّر تلوح حباتها في الأفق آيلة للقطاف، يتحلّب ريقي باشتهاء مر في ذلك الحقل الممتد ما بين حدود الكرمةَ الى سياج الخروب، وحين تعبر عواصف الخريف تسقط منها حبّة أخرى فأشتهي قطافها.

مات الحاج مرجي.. جاءني صوته مرتجفاً... لم أصدق ما أسمع لا يعقل من شاهدته قبل أيام يغفو بوداعة صبي على ركبة زوجته، لكنه مات وسجل أول قصة موت في البيت الخرافي حسب اعتقادي.

حين أتيت وزوجي قبل ثلاث سنوات وكنا ما زلنا مخطوبين، نبحث عن مسكن يكون عشنا الزوجي، كان أول شرط للبيت أن يكون بيتي بلا موتى(لم يتوف به أحد من قبل...) يومها أعيانا السير ونحن نبحث في أطراف المدينة عن بيت لنا دون طائل، فمن أقبية تحت الأرض يعيش ساكنوها أشبه بحياة الجرذان إلى مساكن ضيقة الغرف تشبه علب السردين، كلها تنطق بلغة واحدة (أجور باهظة)، لكن حين وصلنا هذه البقعة من المدينة بهرنا جمال قصورها المشادة تحت سقوف القرميد القرمزية.. وفي سري تمنيت لو أن لنا بيتاً فيها... وشددت على يد خطيبي ثم رحنا نتجول في المنطقة لا لشئ إلاّ للتمتع بجمالها إذ لا يعقل أن تكون هناك مساحات خاوية في مثل هذه القصور يقدمها أصحابها للباحثين عن شقق تأويهم..!

فجأة وجدنا أنفسنا أمام حقل خرافي يغص بأنواع مختلفة من الفاكهة

ترقص على أرضه الأعشاب وأنواع مختلفة من شقائق النعمان... ثمة فراشة بيضاء رقصت أمامنا وكأنها تدعونا للإقتراب.. كان هناك «فيلا» حجرية تشبه أسطورة جميلة، دفعنا الفضول للاقتراب من الحقل الممتد وكأنه يهتف بصرامة كثافة أشجاره «أن لا مكان للمدينة هنا..» لفت نظرنا عجوز يرتدي الحطة والعقال وسروالاً عتيقاً يتمدد على العشب الأخضر يَنعُم بأشعة شمس نيسان الخجول، ودون أدنى تردد أدركنا أنه حارس البناية اقتربنا منه ثم سألناه عن شقة للإيجار؟

رفع رأسه وجلس يحدثنا:

– لمن

– لنا

– هل عندكما أولاد؟

– لا .. ما زلنا مخطوبين.. (قال له خطيبي)

– أبشرا وصلتما مبتغاكما.

انتبهت من غفلتي وأنا أحدق في أشجار الصنوبر والخروب، اعتقدت أنه سيدعونا لمقابلة مالك البيت أو يدلنا على مكان قريب، لكن لدهشتنا نادى على صبيّة ترتدي الثوب البدوي طلب منها أن تحضر المفتاح كي نشاهد الشقة.

سرنا خلفها عبر الممر الأخضر الزمردي باتجاه الفيلا، حسبت ذاتي في عالم الخيال إذ هنا تختبئ أقحوانة، وتحت ظل الجوزة طبق من الحنون الأحمر، وعلى الدرجات الرخامية ترقد زنابق بريّة، ولما فُتحت الباب لنا وأيقنت أن المسكن المنشود هو جزء من الفيلا الجميلة لم أصدق نفسي، أدهشتني سعة صالاته وإطلالته المشرفة ثم أشرت بفرح غامر لخطيبي أنه لنا وأنه أجمل بيت شاهدته عيناي، تفحصناه غرفة غرفة كانت جميعها مُطلة على الحقل الخرافي وحين سألناها عن صاحب المسكن قالت إنه عمي ذاك

الجالس أمام الفيلا خجلت من نفسي كيف ظننته الحارس، عدنا إليه طلب مبلغاً «معقولاً» مؤكداً على ضرورة كتابة عقد بيننا الآن... وأنا في نفسي هتفت (بل اللحظة) قبل أن يفوز به غَيرُنا...

ثم قال: أنا أمّي لا أعرف القراءة ولا الكتابة وكنت (أرعى الجِمَال ثم أعطاني الله ما أنا به الآن من مُلْك) حدقت في عينيه الزرقاوتين كان بهما بريق عجيب، وقّعنا العقد ثم هبطنا التلة، غير مصدقين أننا فزنا بمثل هذا المسكن وابتدأت ترتيباتنا لتجهيز عشنا الزوجي.

أعترف أننا جعلناه تحفة من الخيال، ما بين القطع التراثية إلى قطع الأثاث الجميل المتناسق الألوان، أما مدخله فقد حرصنا على أن يكون امتداداً للحقل الأخضر المحيط به، وعلى البوابة علقت وزوجي لوحة نحاسية محفور عليها يدي امرأة تطلق حمامة السلام كانت رمزاً لبيتنا وللوّد الذي عشنا به. في الليل كانت تتألق الأضواء لتتضافر معها أنغام الموسيقى التي يعزفها زوجي فننتقل الى عالم سحري ،إلى أنهار عابقة تُبهرنا خضرة الأشجار وجمالها، وكثيراً ما تجولنا في الحقل أو جلسنا تحت أشجاره الكثيفة لأكتشف بأنه يحتوي على جميع أنواع الفاكهة التي لا تنضب، أما أمام غرفة الجلوس التي كانت تقبع تماماً تحت غرفة صاحب الدار فقد كان هناك بيت قديم من الحجر والطين بابه من الزينكو يشوّه جمال الحقل والفيلا لكنه قائم أبداً وحين استفسرنا قيل إنه بيت صاحب الدار القديم الذي أصر على بقائه حتى لا ينسى أبداً كيف كان يعيش.

ما أن حل الخريف الأول على سكننا في الدار وبدأ موسم الزيتون حتى تحول صاحب الدار العجوز الى شعله من النشاط، يقطف الثمار ويجمعها ثم يرسل بعضاً منها الى معاصر الزيتون.

وبعد أيام أتى ببغلة تحرث الأرض كان يمتطيها فتقلب العشب الى تراب أحمر اللون يدعو لتقبيله ومعانقته والالتصاق به كان الفجر مزيجاً من

السحّر ما بين تبدد الغسق ودخول أطياف الغيم حاملة الندى ورائحة القهوة المُحمّصة المنبعثة من غرفة صاحب الدار حتى إذا أشرقت الشمس بدأ نشيجه وقصائده بصوت شجي يجعل دمعة السامع تنحدر على الخد ثم يقضي بقية النهار مع الحقل يسوق البغلة يحرث الأرض ويسقي الشجر. فجأة وقعت البغلة وانكسرت ساقها شاهدتها قرب الدار مستلقية كان يأتيها بالطعام والماء وفي أحد الأصابيح الندية شاهدته يحمل البارودة.. وقف أمامها سددها ثم أطلق الرصاص.. انتفضت البغلة وحشرجت ثم لفظت أنفاسها. تَرَنحتُ ومادت الأرض بي ولما سألت (قال أن كسرها لا يجبر ولا حل لها سوى الموت) عجبت من شجاعته وقدرته على قتلها بالرغم من حنوه وعطفه عليها، مع أول زخات للمطر شهدتها في بيته انبعث من تراب الأرض رائحة لم أشهد مثلها، وتلبدت السماء بغيوم حمراء، لمحت العجوز في حقله مترنحاً كمن هو في غيبوبة الصلاة، تارة أراه منتشياً وأخرى حزيناً وكأن المطر قد فعل فعلته وأطلق أشجانه، ولما اشتدت شآبيب المطر وانشقت السماء ليلاً عن برق مضيء ورعد قاصف كان يجلس قرب السنديانة كأنه جزء منها حزين تنهشه ذكريات لا يذكرها لأحد إذ كان له عالمه الخاص وحضوره المسيطر فهو السيد الآمر الناهي، إذ بالرغم من ثرائه الكبير كان قد أبعد أولاده عن عالم حقله الخاص، فكانوا يعملون في المدينة ثم يرجعون الى سلطانه حيث المسكن الكبير. ويظل عالم الحقل له لا يجرؤ أحد على المساس به، اللهم إلاّ أولئك العمال الذين يحملون صناديق الخوخ والعنب وأكياس الزيتون إلى السوق ليبيعونها، وحين كان يقبض ثمنها أو أجار بيتنا كانت تشرق أساريره ويرجع طفلاً «حبوراً» أمام سحْرِ الدنانير التي لا يدرك أحد أين يذهب بها، إذ بالرغم من فخامة الفيلا إلاّ أنه كان قد جعل غرفة جلوسه تشبه بيت الشعر، ثمة حشيات ينام عليها وبجانبه ترقد محماسة القهوة العربية وهناك عباءته وكل ما في الغرفة يوحي بحياته البسيطة، الشاقة التي كان يعيشها.

ظل سر ذلك اليوم الشتائي يبعث هلعاً في قلبي سيما صوت الرياح الذي كان ينوح ما بين الأشجار ويتحطم على نافذتي مفجراً بركاناً من الحزن الدفين في أعماقي ووجهة العجوز الذي كان ينطق صمتاً شجياً، والسنديانة التي كانت تبدد الأفق بوحشتها حتى صار موسم الشتاء موسم قلق، وما أقساه في تلك البقعة من المدينة فكانت أول قبلة للمطر وآخر محطة يتوقف فيها.

في ليلة ماطرة بينما كان زوجي يعزف لحناً حزيناً على الناي سمعنا يداً ثقيلة تطرق الباب دخل العجوز، طلب من زوجي أن لا يتوقف عن العزف ثم جلس مطرقاً يستمع بكل أحاسيسه تحولت الليلة الى أسطورة رخيمة، وجه العجوز وصوت الرياح وعزف المطر، فجأة توقف زوجي عن العزف، اكفهر وجه العجوز تمتم بكلمات قائلاً :«في ليلة ماطرة فقدت ولدين من خيرة أولادي... أدمع ثم انتبه، نهض مثل جمل نافر لملم أطراف عبائته، خرج واختفى وسط شآبيب الليل.

هذا الصيف أثمرت أرضه كما لم تثمر من قبل... أول الصيف قصدت الكرم أقطف بعض أوراق الدوالي لأطهوها، وحين اقتربت منها كانت أصغر من أن تقطف، عبثاً بحثت عن ورقة ناضجة، من بين الأوراق.. أطل وجهه ضاحكاً: لم يحن بعد وقت قطافها... «ثم سألني هل أنت سعيدة في البيت؟ أجبته نعم... لولا ذلك الشعور الغامض الذي يكتنفني حين يُطلق صرار الحقل صوته ليلاً أو تجن رياح الشتاء».

لم يقل شيئاً.. كنت أمسك بيد صغيري حين أقترب منه، قَبّله ثم مَرّغه على التراب قُلت: أهذا أنت الذي كان يخشى أن يكون لدينا أطفال؟ قال: كنت وما زلت أخشى على الحقل لكن الأطفال عيال الله وأحبابه ثم اختفى.

مات الشيخ..، كان أول ما فعله الأولاد أن هدوا الدالية التي كان

يجلس تحتها، ثم شاهدتهم صبيحة موته يقتلعون عدداً كبيراً من الأشجار لبناء بيت الشعر الذي امتد مثل مقام نبي أمام بيتي وقف تحته الرجال يقدمون العزاء ويحتسون القهوة المُرة، وحين قَدِمت الجنازة من المستشفى توقفت سيارة دفن الموتى أمام الحقل ثم سار الموكب حزيناً وغربان النساء المتشحات بالسواد يطلقن النواح.

حل الشتاء. قاسياً اكتست المدينة بالثلج والأشجار تغطت بطبقة سميكة من البياض، فَتحتُ النافذة فاخترق صدري هواء صقيعي، تذكرت أول مرة تساقط الثلج كيف هبط العجوز مثل ملاك الى الحقل متدثراً بمعطفه يغطي رأسه بكوفية ويحمل عصا يزيح بها ركام الثلج عن الأشجار.. الآن أشجار الزيتون تنوء بحملها من الثلج بعضها قد تقصف، وبعضها صار طعاماً للجرافات المعدنية التي أتت تدمر الحقل لتُشاد مكانه عمارات اسمنتية اشتراها أصحابها من الورثة، لكن السنديانة ما زالت مكانها أُحدق فيها وباخضرارها.. الثلج يكسوها.. أحدق أكثر، ويظهر العجوز بكوفيته ومعطفه العتيق يسير حولها.. أفرك عيناي، ثمة شابين يسيران خلفه هل هما ولداه.. لا أدري؟ لكنني لم أرهما من قبل إنهما يسيران ويسيران يتجولان في الحقل والسنديانة التي أبت على الانجراف أمام أعتى الجرافات ما زالت صامدة! هل بُعث من قبره؟ تذكرت كلام زوجته يوم وفاته: هنا دفن ولديه تحت السنديانة، صعقني كلامها تذكرت سر تلك الليلة الشتائية، أحدق أكثر أراه مع الشابين يسيرون بخطوات واثقة يهزون أغصان الزيتون.. يرفع رأسه ثم يضحك لي ضحكة طفل تمتد يده بقطف عنب (لكنه ليس موسم العنب) أتذوق حباته الشهية أشعر ببرودة في حلقي.. لا إنني أهذي لا شك أنه هذيان الثلج وحمّاه، أنتبه على صوت طفلي أدير رأسي كان زوجي يقترب مني يحمل الطفل..

قبضتي متشنجة، تلسعني برودتها، أمسكها زوجي ليفركها كانت منقبضة دعكها ابتدأت تتراخى، أشعر بدفء تبتعد الأصابع افتحها... يصدمني عرموش عنب يتمدد في راحتي!

١٩٩٣/٧

obeikandl.com

الانتظـــار

العاشرة ليلاً اجلس في بيتنا العتيق المهجور أراقب أبي المسجى على السرير الخشبي بعدما أصر على قضاء الليلة هذه في بيتنا القريب من سكة القطار والتي قضى حياته عاملاً في المحطة كان ينظر بعينيه كمن يرتقب قادماً... وكنت أسهو قليلاً ثم أصحو على وهج الضوء الذي يشعله لينظر ساعته مردداً لم يحن الوقت بعد.. وما بين لحظات انتظاره الكئيبة كان يطلب مني كوباً من الماء يرتشف بعضه مردداً: (إنه نفس الطعم لم يتغير) وأنا كنت ارتعد خوفاً واردد في سري هل حقاً تصدق نبوءة أبي؟ وهل تكون الليلة موعد سنوية أمي يوم عرسه وزفافه اليها!

كنت أحدق في وجهه ثم انظر الى الساعة فتطل منها نظرات عينيه الصارمتين مردداً: سترين كيف أن الليلة موعدنا.

كان وجهه صافياً وكأن عناء السنين والأخاديد المحفورة فيه قد تلاشت وحل مكانها وجه طفل بريء معافى ومع ذلك فقد اختلى بي منذ أيام وهو يقلب أوراق التقويم وقد توقف عند هذا اليوم ثم قال هنا سيتوقف قطاري الأخير...

قلت كفاك هذارا أنت تعرف أن الغيب محجوب عن البشر وهذه مجرد ارهاصات تعيشها نتيجة اقتراب سنوية أمي

قال لا هذه هي الحقيقة وسترين بنفسك ثم دخل في نوبة من الصمت الكئيب وفي اليوم الثاني غاب عن البيت طويلاً حتى قلقت عليه فلما رجع مساء قال أنه قد ذهب الى محطة القطار لوداع اصدقائه.

منذ وعيت الحياة وأنا أرى أبي يعمل في محطة القطار كناظر للمحطة ينتظر وصول القطارات ويضبط موعد رحيلها إذ يعيش لحظات الانتظار بقدسية ويظل قلقاً حتى يقرع بيده جرس القطار فيسمع صفيره كئيباً ثم يتحرك من أمام أبي الذي يتابعه بنظرات جنائزية ويظل قلقاً متلهفاً حتى يصل القطار الى البلد المنشود.

أذكر يوماً كان القطار قد تأخر عن موعده قليلاً كيف أمضى الوقت سائراً على سكة القطار حتى إذا رآه انفرجت اساريره مثل طفل يلاقيْ أمه وهلل مستبشراً!.

في أحد الأيام عاد الى البيت حزيناً مهموماً يحمل منديلاً ملطخاً بالدماء اقترب من أمي وفتحه أمام شهقاتها ورعبها ثم أجهش في البكاء وهو يردد.. أنه أصبع أحد المسافرين الذي وصل متأخراً فتعلق في عربة القطار لكنه سقط أرضاً وبترت اصابعه.. وبعد نقله الى المستشفى وجدت الاصبع ملتصقاً بالسكة الحديدية فأخذته الى المستشفى لكن بعد فوات الأوان... وسمعته يردد لو تأخر القطار لحظات.

ثم دفنه تحت شجرة الياسمين التي صارت تحمل عناقيد ياسمين مخضبة بالأحمر كانت ملجأ أبي في لحظات المه المرير

سمعت صوت سعاله نهضت مسرعة وأضأت النور كان وجهه وديعاً مثل وجه طفل همس لي بصوت واثق.. لم يحن الوقت بعد.

قلت له كفاك هذاراً لا شك أن حمى القطارات تتلبسك الليلة وروح أمي الهائمة في ذكرى سنويتها

ثم طلب مني أن أحضر له ساعته الفضية التي أُهديت اليه تقديراً لجهوده عندما أحيل على التقاعد.. وحين فتحت صندوق الأشياء القديمة فاحت رائحة الطفولة منه والأشياء الحميمة.. وشاهدت حطام قاطرة صغيرة من بقايا لعبي الطفولية حملتها وناولته الساعة، حدق بها طويلاً وكاد أن

يحدثني بأمر لكنه عاد وأغلقها وطلب مني أن أرجع الى سريري.

حين عدت الى فراشي أحدق في الضوء الأصفر الشاحب امتد شريط غير متناه من الذكريات وسمعت صوت أمي هامساً حانياً فقد كنت وحيدة أبواي ولطالما تمنيا أن يرزقا بأخ لي لكن الأطباء أعلموهما بأنهما لن ينجبا غيري بسبب تعرض أبي لهباب القطارات.

كانت حياتنا بسيطة إذ كان يرجع أبي مساء الى البيت يتحدث الينا عن المحطة والقطارات والمسافرين وحين وعيت أكثر احضر لي قطاراً صغيراً يسير على سكة حديدية كان يجلس لساعات طوال بينما أراه مثل قاض يحكم بالسفر على بعض الركاب ويوقف آخرين وعندما كنت احتج على معارضته في سفر أحد الدمى كان يقول لي «كل له وقت سفر محدد..» ولطالما تساءلت ألاّ يمل أبي من حياة الانتظار ما بين المحطة الكبرى والأخرى المصغرة! لكنه كان يجيب بأن حلم حياته كان أن يصبح سائقاً للقطارات في الوقت الذي كنت أشعر برعب حقيقي حين أسمع صافرة القطار مولولة.

انتبهت الى صوت قاطرة مودعة... ولمت نفسي أني قبلت أن أقضي مثل هذه الليلة هنا مع خليط الذكريات.. حدقت الى الساعة كانت تنبض بشدة... تساءلت ترى هل تصدق نبوءة أبي أم أنها مجرد هلوسات؟ ترى هل نملك في أعماقنا ساعات أزلية توجهنا.. لاحظت وجود خطين متوازيين على الحائط قلت لعلهما من بقايا رسم الطفولة بينهما شاهدت وجه أبي كنا نجلس على الأرض وسكة الحديد ممتدة الى ما لا نهاية وأرض الغرفة عالم مصغر.. جاء القطار هادراً.. غطى كل المساحات ثم توقف.. صعد الركاب اليه.. لم يبق أحد على رصيف المحطة حان الوقت لقرع الجرس وبدلاً من أن يتجه أبي الى الجرس ليقرعه قفز الى القطار الذي بدأ يتحرك دون قرع جرس ووجدت ذاتي أركض على الرصيف باكية بينما صوت القطار يعطي وقعاً حزين.

تنبهت من رقدتي وادركت أني غفوت قليلاً اسرعت الى سرير أبي أضأت النور كان ساكناً وعلى وجهه ابتسامة أخيرة ذات معنى... ناديت عليه انتحبت... هززته.. نظرت الى الساعة الثانية عشرة تماماً... من بعيد سمعت صوت صافرة حزينة.

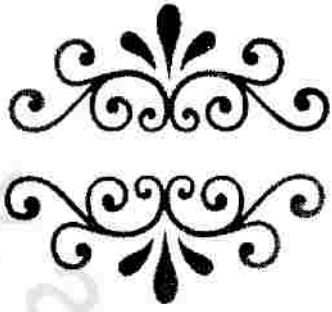

obeikandl.com

عامـــل الحانـــوتي

انهى آخر لمساته الجنائزية ثم تطلع في الوجه غير مصدق.. دار حول نفسه وركض يحضر صورته الصغيرة ليقارن الشبه الكبير بينه وبين الميت المسجى وهو يردد بين نفسه لو كان توأماً لي لما كنا متماثلين بالشكل هكذا... وتأمل الميت قائلاً لنفسه سأكون هكذا بعد وفاتي ثم أحضر مرآة كبيرة، وتطلع بها، معانقاً الميت.

يا له من شبه غريب بيننا، لاحظت ذلك منذ أن أحضروه الى هنا. وطلب مني أهله أن أعده للدفن صحيح أنني جهزت الكثير من الموتى في حياتي، لكنني لم أشعر بمثل هذا الشعور من قبل إذ كنت أتعامل معها على اساس أنها دمى.. أحنطها وأدعك أجسادها بالمسك والزعفران والحنة، واختار لها أكفاناً جميلة توابيت رائعة، لتغفو إغفاءتها الأخيرة بسلام وقبل أن أغلق التابوت كنت أشعر وكأن الميت يمد يده لتودعني، لكن هذا الميت شعرت بمودة تجاهه وكأنني أحنط نفسي... كان أهله قد اختاروا له أفخم تابوت وأغلاها سعراً.. ولو أنني كنت في بداية عملي لشهقت أمام الثمن الذي طلبه صاحب الحانوت، إذْ من يضع تحت التراب مبلغاً كهذا يقدم لديدان الأرض الشرهة.. ومع أنني كنت أخاف كثيراً من رؤية ميت إلاّ أن الجوع جعلني أقبل العمل هنا، ومثل اختلاف أذواق الناس في اختيار ملابسهم وأثاثهم كذلك تختلف أذواق ذويهم في اختيار أنواع التوابيت.. فهذا تابوت أميركي الصنع، وذاك فرنسي، وكنت أتساءل ترى هل يختلف الحساب في التوابيت، وهل يخاطب ملائكة الموت أرباب التوابيت حسب لغة البلد الصانع له.. وبحسرة كنت أسترجع ذكرى أمي العجوز التي

قضت عمرها توفر من بقايا قروشها القليلة آملة أن تكفن بكفن من الخام الجيد كي لا تدفن بثوب ممزق مثل ثوب جدتي التي ما أن حملها الرجال على أكتافهم حتى خرج من الثوب صرصار كبير، أدرك أن زمان إقامته قد انتهى، وأن عليه البحث عن مكان آخر... لكن أمي ماتت غرقاً في النهر الذي جرفها الى الأعماق، وقدمها قرباناً للأسماك الشرهة، ولم يبق لي سوى بقايا جديلتها التي علقتها في غرفتي.

وظل صدى اغنيتها الحزينة التي كانت ترددها أثناء غسيلها لثياب الناس على كتف النهر يردد صداه في أذني.

كان من عادتي بعد الانتهاء من طقوس الجنازة ودفن الميت أن أذهب الى المقبرة لالتقاط صورة تذكارية للقبر وأحيطها بإطار عاجي ليأتي بعد ذلك أهل المتوفي وأخذها لتظل صورة للأحفاد القادمين، تذكرهم بجذورهم التي تندثر مع شلال الزمن الهادر الذي لا يتوقف.

في نفسه تساءل ماذا لو كان هو الميت وكان هذا المهرجان الضخم الذي سيقام غداً له، ثم ضحك وهو يردد واحسرتاه أمي ماتت بلا قبر.. تخيل عربة الموتى التي ستسير ببطء وأكاليل الزهر الجميلة، تساءل لم لا يبتهج الموتى أمام هذه الاحتفالات المهيبة.. ثم خطر بباله خاطر لم لا يكفن نفسه ويصبغ وجهه بالزعفران ويجرب النوم في مثل هذا التابوت الفخم وسط الأضواء الناعسة والأثاث الفاخر الذي يليق بالموتى الموسرين.

كان الحانوت يشبه المعابد المقدسة بأضوائه وأقواسه وأصوات الترانيم الجنائزية التي تليق بالمناسبة، وكانت قوارير العطور الفاخرة موزعة على الأرفف وثمة رؤوس مختلفة من الجبس منضدة على الرفوف تمثل بعض الموتى الذين تم عمل تماثيل لهم، في نهاية الغرفة مغارة كبيرة لها قدسية خاصة، وبها الكثير من حاجيات الموتى مثل المر والزعفران والكركم والزنجبيل وزيت الكاد، ثم سرير للموتى قربه حزام متحرك يشبه حزام

الحقائب في المطارات، بحيث يستطيع نقل الميت من مكان لآخر... وهناك الستارة المخفية حيث يدخل تحتها الحزام المتحرك إلى الغرفة السرية التي لا يدخلها أحد غيره وغير موتاه لاجراء اللازم لهم.

كان التابوت المطعم بالعاج قد صار مجاوراً للميت الذي انتهى من اعداده، ولم يبق سوى تحريك الحزام المتحرك ليصير داخل التابوت، لكن الفكرة الملحة التي بداخل رأسه تدفعه للتجريب لعله يجرب موت الموسرين.. ثم أنها فرصته الأخيرة لا سيما أن الميت يشبهه وهو الذي عاش حياته فقيراً فليجرب للحظات طعم الثراء.

تعرى ثم نظر الى جسده تحت الضوء الشاحب وأمسك زجاجة الزعفران ودهن نفسه وهو يضحك.. تابع عمله وأضاف المسك والحنة ثم احضر كفناً حريرياً لفه حول جسده ولم يبق سوى يداه اللتان قرر أن يدخلهما في آخر لحظة.. توسد التابوت وضغط على زر الحزام المتحرك وبدلاً من أن تدخل جثة الميت الى التابوت تراجعت للخلف ودخلت الغرفة السرية.

أما هو فقد استلقى في التابوت على وسادة حريرية وسحب الغطاء، إلاّ قليلاً.. ثم نظر الى الضوء الخافت وراح في سبات عميق.

في الصباح أتى أهل الميت لاستلامه وسط موكب جليل يتقدمهم صاحب الحانوت الذي كان يرتدي بذلته الرسمية كما هي الحال عند تسليمه للشخصيات الكبيرة.

كانت الأنوار مضاءة والتابوت بمكانه المعتاد ساكن... وطرفه الصغير منزاح قليلاً عن مكانه...تقدم الأهل ألقوا نظرة أخيرة على الميت راعهم جمال التابوت ودقة صنعه.. اقترب العمال بملابسهم الرسمية أغلقوا الغطاء وحملوا التابوت دون أن يلاحظ أحد أن الميت هو عامل الحانوت بينما كانت جثة ميتهم تقبع في الغرفة الأخرى بانتظار عامل التنظيف ليحملها

على أنها جثة عامل الحانوت بجنونياته المعتادة التي كانت تضجر صاحب العمل.

في الخارج كانت الأبواق تعزف لحن الرجوع الأخير وثمة حشد كبير كان يؤدي التحية لجثمان العامل البسيط.

obeikandl.com

مدينـة الدمـى

قلت له أظن انتهينا ووصلنا الى ما نُريد.. تطلّع اليّ كان في عينيه اكفهرار مدينة أو انقلابها.. لا بل مدينة أطاح بها الزلزال فلم يبق سوى الأنقاض. توقعت أن نثب معاً في قفزة متراقصة إذ بعد عمل مضنٍ وسنوات من البحث المتواصل لا بد أنه فرح جداً.

أجابني بقلق.. بصمت وبحيرة لا بل أنني خشيت أنه لم يفهم بعد ما أقصد، تطلع اليّ برعب حقيقي ثم قال: لم يبق في المدينة سوى أنا وأنت فقط.

قلتُ: والسُّعار؟... والشفاء من الطاعون... هل يُعقل أنهم رحلوا؟ أم أن الموت رحّلهم؟

قال: ما النتيجة.. المهم أنه الخواء.. الخواء الذي نكافأ به بعد سنوات.

قلت له: افعل شيئاً.. تحرك.. توسل.. اصرخ.. لكنه أجابني بالصمت العميق..

أيهذا الانسان الغريب كيف أستطيع اللحاق بك.. كلانا غريب من مدينة بعيدة محنّطة، حدثني عن حياته.. وعن رجل كان يجاور المقبرة يلحق كل جنازة يبكي لها.. ويلحق بها مصلياً يحاول أن يستفيد من كل معلوماته الطبية ليرجعها.. فقد كان يدخل مع موتاه الى غرفة صامتة يتحدث إليهم.. يخاطبهم.. ثم يسأل أهل الميت عن ماضيه وعمله.. ويقرأ بعض التعاويذ والأدعية ثم يغلق الكفن الأبيض نافثاً حفنة تراب وفناء ويخرج صامتاً.. وكانت له هواية سيئة هي جمع رفاة الموتى.

قلت: أي مجنون هذا الذي يتحدث اليّ؟!

قال: في يوم شعرت ببؤس الحياة وبأنها حياة خاوية تلك التي نعيشها تكبلنا سلاسل واهية.. خيطان من حبال لا مرئية نظنها الأمل والحلم والبناء.. ونلحق بها لنكتشف أنها السراب.

توقف أيهذا الرجل المهذار عن الكلام.. إنك تؤلمني قلت له. لكنها الحقيقة ثم مضى باتجاه آخر في الحياة.. وتحول من طبيب نصف مخبول الى طبيب حقيقي للبحث عن الحقيقة في المدينة، وحين استشرى بها مرض غريب أشبه ما يكون بالطاعون نذر نفسه عاملاً بنصيحة امرأة كانت يوماً قد عمدته بصليب في أحد المقابر قائلة: قبل أن تبدأ بمداواة الناس والكشف عن سر الحياة ابحث عن معنى الموت.. وكنت مثله امرأة غريبة تساوي لدي الربح والخسارة.. الحب والكره.. الموت والحياة إذا ادركت أن استقرارنا مزيف وأنها رحلة عابرة.. وعملنا معاً..

كان عندما يقف أمام انسان ميت.. ينفجر في الضحك ثم يأخذ في البكاء.. إذن اللحظة توقف هذا المحرك عن العمل وهرب الى بساط الفناء.. الآن انتهى عمل هذه الدمية.. ثم اتخذ غرفة سرية وبدأ يصنع لكل انسان في القرية وجهاً من الحجر ثم يكمل التمثال حتى يصير على شكل دمية مصغّرة يثبت لها محركاً.. تبدأ بالعمل.. إنك مصاب بجنوب العظمة قلت له.

لا بل.. أجرب.. ما يجري في الحياة.. هل نحن مجرد دمى متحركة صنعت لها قوانينها.. وعاداتها ومشاكلها.. تبدأ بالعمل مخمنة أنها خالدة، وبلحظة مفاجئة تتوقف.. قد يكون أثناء طعامها.. أو نومها.. أو راحتها.. انها لحظة مضحكة لحظة تنتهي.. اسمعي لا بدّ أن هنالك كاتباً كبيراً وقوة عظمى صنعت هذا الكون وتركت الناس يمثلون المسرحية التي كتبها.

قلت: ماذا لو شغلتك الأمور اليومية عما يدور في الحياة؟

قال: أتحول الى انسان مخدّر وأفضل الموت على ذلك، جاءني يوماً وطلب مني أن أقف أمامه وابتدأ يصنع تمثالين لنا.. صنعنا دميتين مع أنهما كانتا غريبتين عنا لكننا اقتنعنا بأنهما نحن.. واحببناهما.. للحظات كان يخطر بباله أن يقتل الدمية التي تشبهه، لكنها كانت تصاب بنوبة سُعار مفاجئ ثم تجثو على قدميها متوسلة باكية ألاّ يقتلها.. ويتركها تركض تارة أخرى فيصيبها السأم والجنون...

آه من جنوننا وكنا نتطلع بعين حاسدة للمدينة التي تعيش حياتها سوية بمرحها وبؤسها وشفائها، وحبها إلاّ نحن الاثنين الغريبين.

فجأة أصابها الطاعون، ازدادت صلواته وعذابه ورحيله في المقبرة خلف الموتى حتى حفيت وتشققت قدماه.. ثم قرر أمراً.

قال: سأحيي المدينة.

هرول الى مقبرته المصغرة وابتدأ ينادي عليها كانت منكسرة خاوية..

دخلت اليه كان نصف جاثٍ في حالة سجود.. وابتهال، لم أره يوماً أتعس مما كان عليه حالاً.

قلت: أيهم تعتقد أكثر بؤساً أنت أم هي؟ هي دخلت في الفناء أما أنت فإنك تعيش الخواء والمرارة وحدك... لم تعد تشعر بك كفّ عن الهذيان أتوسل اليك...

وصمم.. واستعان بكل علوم ومعاهد العالم وجامعاته لكي يحيي المدينة.. وتحول لمسعور يقرأ الكتب ويراسل الجامعات، ونحن نبحث عن عقار ناجع.. سهرنا معاً.. تعبنا معاً.. كانت وجوه من بقي في المدينة تطل علينا من كوة القبو الذي فيه مختبرنا وكانت مكسورة حزينة.. وكان يعدها بأنه سيصنع أمراً ويوقف المرض... وكان بمقدار حزنه وجنونه يتابع العمل المجنون بينما الوجوه تلاشت وقلّ ورودها الى كوة المختبر.

بمقدار يأسي كان تفاؤله.. سنضيّع عمرينا.. وصمت.. آه لو لم تتخطّ

الحاجز وكنا مثل الناس العاديين نتابع حياتنا دون أن نرفع رأسينا ونبحث عما خلف الدمى وحركاتها.. والبحث عن خيطانها المحركة..

لفّه صمت مقدس.. صار كل ما حولنا صامتاً، المدينة، الكون.. وهتفت آه لو تغفو أيها الطبيب، الذي نصبَ نفسه مثل آلهة تقاوم الفناء.

لكنه كان مسهداً يأكله الأرق والتعب.. وكنا في أواخر مراحل تجاربنا.. فجأة وجدته يغفو مثل طفل.. استسلم لسلطان أكبر منه.. وأنا سهدت لوحدي أتابع عملي أحقن الفئران وحيوانات التجربة.. أرقب الأنابيب أشاهد وجوهاً تكبر ثم صمتت جميعها دون استثناء وفجأة قامت من سباتها ومرضها وقامت تمشي.. تطلعت إليّ بعيون حمراء غير ممتنّة لكنها حانقة.. كانت تتقافز.. أسرعت إليه لأوقظه من سباته وتوقعت أن يقفز مهللاً.. استيقظ وفي عينيه غضب.. تطلع إليّ، حاولت أن أقرأ الفرح في عينية عبثاً.. ثم فجأة وببرود الأرض الحيادي قال:

لم يبق في المدينة أحد..! فقد رحلوا...

– الى أين

– لا أدري

– هل خرجوا من تحت سلطتنا؟

– لا أعلم

هل بحثوا عن مدينة أخرى؟ قال: نحن من صنعنا المدينة.

فئراننا قفزت من أقفاصها هاجمتنا برعب وحشي، أنا أمسكت يده.. حاولنا الخروج.. لا هذه ليست لعبتنا إنها ليست لعبة بشرية.. لماذا ابتدأنا اللعبة؟ عالجت البوابة، انطلقت ضحكة أموات في وجهينا.. أشباح المقبرة خرجوا.. لم يلتفتوا إلينا.. عاودنا الهرب في درب آخر.. كان هنالك جمجمة تهرول وحدها.. ذعرنا أكثر.. اقتربنا منها، كان هنالك فأر معافى

يصيح:- ما فائدة أن يحمل حيوان بذرة الحياة لانسان ميت...

خرجنا بصعوبة.. هرولنا بعيداً بعيداً... لم نذكر شيئاً عن هذه المدينة.. وجدنا أنفسنا فجأة في مدينة جديدة على حافة الرصيف وجدنا المارة لم نحدّث أحداً بما جرى.. وما فعلناه..لكننا فيما بعد تزوجنا دون أن يجرؤ أحد منا على ذكر ما حصل سابقاً...

انشغلنا بالأطفال.. والحياة شأن البشر. كان دوماً في عيون أطفالنا قلق وتساؤل مقيت... لكننا لم نشجعهم أبداً على طرح مثل هذا السؤال.

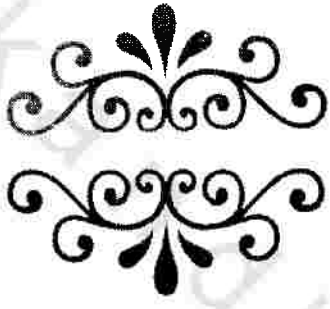

obeikandl.com

الآن... انطفأت شعلة الحرب.. فأي الشعل نضيء

ولكن هل من وقود....؟

* هذه القصص تمت كتابتها أثناء حرب الخليج عام ١٩٩١

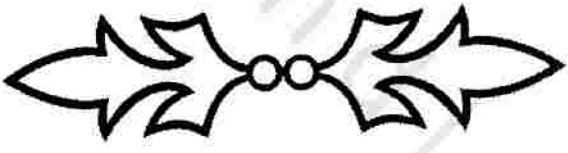

obeikandl.com

وجوه بين الموت والحياة

حاصرنا الألم في غرفة واحدة من غرف المستشفى... كان ذلك في زمن الحرب... منذ مدة وأنا أحلم بمستنقعات زرقاء تغطي ساحات المدينة.. مستنقعات من طحالب لا لون لها، تتزاحم على الخروج من الماء متسلقة الجدران الهشة... ثم تسقط منزلقة الى عمق منبتها.

كانت الغرفة تضمنا جميعاً.. زوجة الجندي أتوا بها في حالة انهيار عصبي بعد تهدم جدران منزلها وبعد سماعها أنباء الحرب الضارية.. وإدراكها أن زوجها لن يعود من ساحة القتال...، والطفل الذي كان في حالة صراع مع الموت بينما أمه تتوسل بحرارة لله وللعاملين في المستشفى أن ينقذوه من براثن الموت...، والطبيب الذي كان يلف وجهه غموض أزليّ مبهم...

كنت الممرضة الوحيدة المشرفة عليهم.. إذ أثناء الحرب تتزاحم الأسّرة ويكثر الجرحى وتتحول الممرات إلى عنابر يختلط فيها الصغير بالكبير والطبيب بالمريض.. وكنا نعيش لحظات رعب قاتل، كنت أرقب بعض العجائز، وهن يقضين نحبهن بين الحين والآخر خوفاً وهلعاً عند سماع صفارات الانذار، وأصوات القذائف الهابطة على المدينة..

كان الطفل هالكاً لا محالة أمام إصابته بالتهاب الدماغ، وقد دخل في غيبوبته وحالة كهذه تتطلب عناية تامة.. فكيف إذا كان طريحاً وسط هذا الحشد من الجرحى، ورائحة الجلد المحترق وهذا الموت الأصفر الذي ينبعث من كل زوايا المكان... أما المرأة فقد كانت تهذي تارة تتحدث عن موت زوجها الجندي.. وتارة عن الطبيب الذي دخل في محراب الصمت وراح

يمارس عمله بآلية مريبة... وكان وراء صمته حديث طويل.. كل ما نعرفه عن حياته الشخصية هو أنه عازف عن الزواج لأسباب لم يبح بها بتاتاً.

كانت عينا الصغير تنوسان في وجهه وكأنه يرى أشباحاً أو ملائكة خفية لا نراها، وبين حين وآخر، يعلو صدره صاعداً هابطاً.. والأم تنتحب..تندب أيامها وحياتها التعسة.. حيث الابن يوشك على الرحيل والأب الذي يعمل في صيانة الآلات الحربية قد ابتلعته الحرب.

اقترب الطبيب يسألها عن عمر الطفل. وكانت غارقة في نحيبها لكنها تنفست بعمق ثم نظرت الى البعيد وقالت: إنه مولود في نفس اليوم الذي ولد فيه أبوه، إنهما في هذه اللحظة يتصارعان بين الموت والحياة، لقد أرسل لي والده خبراً أنه ما زال يعيش في عالم من الجحيم والدمار، وليلتها فجأة ودون سابق إنذار.. انخفضت حرارة الصغير ودخل في سبات حركي وهو يعاني سكرات الموت وعادت المرأة الى وجومها الأليم.. قطع علينا الحديث دخول جندي يسأل بلهفة عن مريضه، وقبل أن يسمع الجواب هرع نحو المرأة التي أتت في حالة انهيار عصبي.. وأسرع إليها معانقاً، وهو يردد: أخذت إجازة حرب وأتيت لأجد البيت قد تهدم قسم منه، وخمنت أنك قد تكونين مصابة ثم أخبرني الجيران أنهم نقلوك الى هنا فأتيت مسرعاً.. حمداً لله على سلامتك.. وتشبثت به الزوجة وألقت رأسها على صدره باكية وهي تنشج..: لقد هالني الدمار بعد انهيار الغرفة وكأن الشياطين قد قلبتها على أنقاضها وكانت رؤيا قاسية وأنا أتخيلهم يحملونك اليّ من ساحة الحرب على نقّالة ميدانية كنت متسربلاً بدمائك المتجمدة.. وتيقنت من شيء واحد هو أن حياتي قد انتهت ولم يبق لي في الدنيا أيّ شيء.. وليس أمامي سوى الوحدة، ثم أجهشت بالبكاء لكن دوياً ضارياً غطى على صوتها وسط اهتزاز الجدران وزجاج النوافذ وأدركنا فداحة ما يجري.. وراحت الزوجة تسأله عما سيحدث..، كان حزيناً.. وقال إن قوات العدو عززت مواقعها ووصلتها إمدادات جديدة..، كانت أم الطفل تستمع.. هلعت لما يقوله الجندي.. إذ أن ذلك يعني هلاك الأب لا محالة..

وراحت تقول يعني أنا الأخرى سأبقى بلا زوج أو طفل.. يا إلهي لقد كنت أكره زوجي ولما حملت منه صرت أكرهه أكثر، إذ كان ذلك يعني ارتباطي به للأبد.. ويا لرعبي حين ولد الطفل في نفس يوم ميلاد أبيه، لكن حين رحل الأب الى الجبهة شعرت بوحشة وندمت وتعلقت بالصغير تعويضاً عن الفراغ الحتميّ الذي خلّفه أبوه، لكن يبدو أني سأفقد الاثنين معاً...

أما زوجة الجندي فقد ارتفع صوتها عبر نشيجها المتقطع... اسمع يا عيسى.. لقد أخفيت عليك أمراً لدي مبلغ من المال خبأته في أحد جدران الغرفة يمكنك إذا أخرجته أن تستغني عن كل مشاق العمل... وبعد أن تترك الجيش تعيش حياتك من جديد... كنت أراك تتعذب في البحث عن لقمة العيش، لكنني شاهدت أختي وزوجها وكيف كان يعاملها كخادمة واستولى على إرثها. وحتى أطفالها بعدما كبروا تركوا البيت وطافوا في الشوارع.. أما الزوج فقد هجرها إلى زوجة أخرى.. تاركاً إياها شبه متسولة.. اسمع.. لا يوجد استقرار في هذه الحياة ولا شيء حين يكون الزوج مجرد شريك يستنزف طاقات المرأة جسدها، عملها، انجاب الأولاد... هذه الكائنات التي تنبت من عذاباتنا حتى إذا ما كبرت ورأت ضعفنا وبؤسنا غضت عنا الطرف.. ولّما كنت عقيمة ولم أُنجب أولاداً أخفيتُ ما أملكه من نقود لأستعين به على الحياة إن أنت تركتني.. لكنك كنت غير ذلك ولم أنتبه لنبلك وشهامتك.. أطرق رأسه ولم يجب.. بل إنه ربت على كتفها مطمئناً.. «غداً ستنتهي الحرب وتفعلين بنقودك ما تشائين».. تعلقت بصدره أكثر.. كان الطبيب يستمع لما دار بينهما من حديث وارتفع صوته متهدجاً بنغمة حزن شجية.

قال..: مللت من عملي، كنت أعتقد أن مداواة البشر والسهر على آلامهم هو طريق سعادتي.. أما الآن وأمام هذا الموت الذي يجتاح المدينة.. فأحس بعجزي عن إكمال المسيرة..، لو أنني تزوجت.. لو أن لي طفلاً يحمل اسمي.. أو امرأة كانت بانتظاري.. لست نادماً على تكريس حياتي

للطب لكن حياة يحكمها قانون الحرب هي حياة باطلة.. والعيش في مدينة تستطيع أيّ قذيفة أن تحرق ربعها في ثانية واحدة يشبه العيش في مقبرة.. أنا لا أؤمن أن الحرب طريق السلام الوحيد لكن غباء البشر أصبح يفوق كل هرطقة التاريخ.. عشت حياة تخللتها آلاف من الجراح... الجراح العفنة.. التي كنت أعالجها.. تلتئم على خبث البشر وشرهم.. الجرح يستولد الجرح والدم يستنزف الدم.. عبثاً كنت أصلح الأنسجة المتهتكة والجلود المحترقة.. يا إله السماء متى يتوقف شلال الدم..؟

بالأمس وصل آخر الجرحى.. كان شاباً في الثلاثين..لم يكن يحمل هوية.. كانت في رقبته سلسلة هوية معدنية.. والرقم المحفور عليها كأنه نقش دارس على قطعة نقد أثرية.. وأما الكلمة التي تدل على ديانته فقد امّحت ولم يبق سوى هذا المقطع (مسـ) ولم نميز هل هذا يعني أنه مسلم أم مسيحيّ.. أو أين سيكون قبره في الأرض.. أما فصيلة دمه المنقوشة هناك فلم يبق منها أيضاً سوى نصف دائرة على شكل هلال.. وصليب [+)] ربما كان دمه O^+.. وبعد أن فتشنا في أمتعته لم نجد سوى ورقة مطوية كتب فيها ما يلي: (أبي .. أنا أحبك.. وأعدك أن أحب أمي وأخوتي.. في غيابك كما أوصيتني .. سوف يبقى حبك طريقي حتى لو سفك البشر دمي..) ..آنذاك بكيت وبكى الطبيب.. ثم أردف..: أعتقد أنه لا يوجد معنى للحياة.. إنما نحن نشغل أنفسنا بما تصنعه أيدينا من بيوت أو مواد متفجرة على حد سواء.. ولمحنا دمعة أخرى تترقرق بين أهدابه.

كنت أعشق مراقبة الناس.. والبحث في أعماقهم وخاصة في لحظات القلق والخوف.. ولذلك اجتذبتني مهنة التمريض.. كي أكون قريبة منهم ساعة آلامهم.. وأشاهد بأم عيني كيف يتحول جبروتهم إلى ضعف وعنجهيتهم إلى صلاة وكيف أنهم لحظة المرض يخلعون رداء المكابرة على أبواب المستشفيات ليرتدوا لبوس الضعف والاسترحام.. لم تكن تمتعني مشاهد ضعفهم، إنما كنت أحس بها أقرب الى الحقيقة... وكنت أرقب الموتى لحظة احتضارهم، والتقط لهم صوراً سريّة.. ساعة الموت.. ثم

أجمعها مع صورهم وهم في كامل قواهم، وأضعها في ألبوم خاص، وأسجل تحتها ما سمعته من هذيانهم..

دوّى قصف آخر قطع عليّ تيار الوعي..نظرت الى وجه الطفل المحتضر.. وفجأة التمعت بفكري حقيقة أذهلتني.. (لم أكن ألحظها طول الوقت).. كان وجه الطفل المصاب بالتهاب الدماغ يشبه الى حد مخيف وجه الطبيب وكأن وجهاهما يتواصلان في لحظة تكاد تفر من زمانها..

قبّل الجندي زوجته وانطلق مسرعاً الى خط النار بينما هي تتضرع الى الله أن يعيده لها سالماً، وأم الطفل كانت ما تزال في وجومها تكابد آلام روحها المتصدّعة.. قضينا الليلة واجمين.. وكأن مرحلة جديدة من حياتنا تتقدم ببطء

في الصباح.. وبدون أي مقدمات .. أسلمت أم الطفل الروح، أما طفلها فقد فوجئت بتحسن حالته.. ها هو يسترد حياته بعد أن كابد ليلة هائلة، وحين فتحت المذياع كانوا يتكلمون عن هدنة عقدت بين الأطراف المتحاربة... وجاء من يبشر الأم بنجاة زوجها وأنه في طريقه الى البيت.. وتوقف القتال..!

هرعت لأخبر زوجة الجندي.. لم أصدق ما رأيت، كانت جاحظة العينين وقد فارقت الحياة.. كان وجهها يشبه تماماً وجه زوجها وكأن روحه قد حلت بها..

هرعت لغرفة الطبيب.. قرعت الباب.. ثم قرعت بشدة.. وبعد أن كسرناه وجدناه يسبح في بركة من الدم بعد أن فصد شرايينه.. كان وجهه نفس وجه الطفل القادم لتوه من مفازات الموت..

وقفت حائرة في ذهول لم أجرؤ على تصوير أيّ شيء.. كل ما عملته في ذلك الصباح أنني كسرت آلة التصوير وقدمت استقالتي وغادرت المستشفى...

مرت سنوات كثيرة بعد ذلك اليوم.. وكان في أعماقي هاجس يلاحقني.. ما معنى كل ذلك..؟ الموت والحياة ووجوه البشر.. وفي يوم من الأيام أحسست بشعور غريب يدفعني إلى عنوان تلك السيدة.. مررت أمام بيتها.. كان ما يزال مهدماً، وقد لملمت إحدى الجرافات أنقاضه في كومة عالية.. حولتها السنين والأنواء الى تلة صغيرة.. وكان قد نصب على مدخلها سبيل ماء كتب عليه (هذا لوجه الله تعالى عن روح كل شهداء الحرب الأخيرة).

وكان هنالك مستنقع من المياه الزرقاء.. يحيط بالمكان، يعج بطحالب لا لون لها، تحاول أن تتسلق تلك التلة، فتتهافت منزلقة الى عمق منبتها...

أوراق الاوكالبتوس

قرص الرادار ما زال يدوركطائر أعمى يبحث عن اتجاهه، رائحة رمال البحر تأتي مع العاصفة فتعبق في أنفي.. جسدي ينز بقطرات دماء أشبه ما تكون بأمواج التاريخ، حارقة متقطعة...قائد السرية يتطلع اليّ بنظرات حيرى ويربت على كتفي بانتظار الطبيب، بينما أسرع أحدهم الى خيمتي ليحضر لي أوراق نبات يعالج بها جرحي.

وجه أمي الطيب بمئزرها ورائحة دمشق تنبعث في أعماقي، ترسم صورة كاملة لحاراتها القديمة، وأزقتها.. وصوت الماء المتدفق في بحيرات البيوت وعلى شوارعها الضيقة يقطر في قلبي... ينزف قطرة قطره تدفق من شراييني.

انظر الى جرحي.. وأتأمل الصحراء الجافة التي يخيل لي أنها سترتشف دمائي.. وقرص شبكة الرادار الذي يدور كآذان الخفافيش يبحث عن شيء ما، ثم أشتم رائحة الياسمين المنبعث من بيتنا العتيق ممزوجاً مع زهر النارنج ثم أرى طيف أمي تغدو ذاهبة آتية تشعل الموقد وتضع عليه بعض الخبز والبخور فتنتشر رائحة طيبة تمتزج مع صوت أبي الذي يؤذن في (مئذنة الشحم) القريبة يحرر رعدة في أوصالي وكأنها لحظة البعث فأنقلب في سريري.

– الله يرضى عليكي يا ناجية عوّدي الأولاد على الصلاة.. صلاة الصبح باكراً.. (ركعتا الصبح خير من الدنيا وما فيها). وتسقط أول زهرات الياسمين على الأرض تشق غبش الفجر تعطر صوت أبي وتتسلل إلى الحارات العامة تبدد منع التجول الذي فرضه الفرنسيون.

– قلت لك لا تنسل مع الفجر يا رجل فمنع التجول مفروض في كل أرجاء دمشق

– سيحميني الله يا امرأة إنني أؤذن للصلاة والمؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة ولن نحصل على الاستقلال إلاّ بالعمل والايمان.

ويطل أبي بعد غيبة أكبر من أن تكون لصلاة الفجر، ويظهر على مائدة أمي المزهرة بالجبن والزيتون الدمشقي.. بينما أنهض وإخوتي بثياب النوم المصنوعة من الفانيلا، ونتسابق الى بركة الديار نتبارى في أيام الشتاء من يكسر طبقة الجليد الهشة، ويعب من البركة لنتوضأ، ثم نقف في الصلاة خاشعين. وتنبعث رائحة الشاي المعد بواسطة السماور من غرفة الجلوس ممتزجاً برائحة الاوكاليبتوس* التي تنعش البيت، بينما تنهض أختي مثل قطة تتمسح بجدران البيت لتلحق بنا. ونقف في انتظار أبي خلف الباب فيظهر رجل طويل القامة يرتدي الطربوش والسروال حاملاً معه نسيم الصبح الذي تسلل عبر قناطر الحارات الدمشقية مبشراً بيوم جديد من النضال.. بينما يلهج لسانه بالتسبيح وتضغط أصابعه على حبات المسبحة وكأنها أيام دمشق المنصرمة. ونسرع مثل قطط نلتف حوله ونقبل يده في صف منتظم ونصطف لنسمع السؤال المعتاد:

– هل أدى الأولاد صلاة الصبح؟

– الحمد لله اليوم حامد أمّ بنا في الصلاة.

– والبنت؟

– صلت معنا..

– عما قريب سأحجبها لتكون من أهل التقوى.. كيف لنا أن ننتصر إن

* نبات ينمو في اقاليم البحر المتوسط تستعمل أوراقه لمعالجة الجروح.

لم نتق الله..؟ ونسير خلفه لنلتف حول المائدة ذات الرائحة الطيبة كحقل لوز في موسم الربيع.

– هل ما زالوا يشددون على الناس...؟

– بالأمس نزلت قنبلة على حي (الكلاسة) وأحرقت حارة كاملة وقيل أنه قد قتل جندي فرنسي.

– لا بد أن تزداد المقاومة...

– ليس لنا سوى الايمان والحجارة.. لقد اعتقلوا أبا صبحي... وتابعنا الطعام بوجوم حزناً على الحارس أبي صبحي ذي الوجه الطفولي الذي كان يؤنس الحارات بناره التي تشتعل ليلاً فتطرد الساكونة والشياطين التي يحذروننا منها.

تمتد يد أخي الصغير الى وعاء الزيت فينقلب الصحن مبللاً يديه وأصابعه.. بينما تترك أمي طعامها لتحضر خرقة تمسح بها الأرض.. وتتوقف في منتصف الديار على صوت طرقات على الباب.

– لقد أتوا.. ماذا يريدون؟ وتحدق في خوف بوجه أبي، وقبل أن تلتقط أنفاسها كسروا الباب ودخلوا...

أنت المؤذن..؟ تعال معنا... يصيح الجندي بصوت ذو لهجة قاسية ويسرع أخي الصغير ليختبئ خلف أمي التي سحبت أقرب غطاء ووضعته على رأسها.. ويتطلع أبي باتجاههنا.. ثم إليهم ويسأل: ماذا تريدون؟

تعال معنا الى مخفر العمارة وهناك ستعرف ماذا نريد...

وتدرك أمي سبب اعتقاله.. ونفهم نحن سبب تأخره بعد الأذان وعسيسه بالليل مع الرجال.. ويغيب طويلاً.. ثم تأتيها أنباء غامضة ويسافر مع الرجال الى الجبال... وتدير أمي شؤون البيت بينما ترتدي أختي المريول الأسود وتذهب الى سوق الخضار لتأتي بالسلال المحملة فتنوب مكان أبي وتحز السلة يدها ويداهمها مطر دمشق الغاضب.. ولا يأتي أبي.. وفي

طريقي للمدرسة المح الثوار يختبئون في الأزقة والطرقات...

– احترسي يا ابنتي أثناء إحضار الطعام...

– لا يا أمي إن الثوار يساعدونني في العبور.

مضت أيام وأصيب أخي الصغير بحمى التيفوئيد.. وصار يهذي.. يومها ذهبت اختي تبحث عن دواء في الصيدليات أو محلات العطارة.. أمطرت عليها كما لم تمطر من قبل.. وعادت ترتجف وهي حاملة سلتها التي حزت يدها.. فكادت تدمي.. كانت ترتعش مثل قطة مبللة.. وبعد أيام أصيبت بعدوى التيفوئيد وصار البيت موبوئاً.. ثم أتى من يحقن الحارة باللقاح ضد هذا الوباء.

وبعد أيام أتى من يخبر أمي شيئاً، فأعدت فراشاً وجلست تنتظر، وخيم المساء بينما المريضان يهذيان تحت تأثير الحمى.. سمعنا طرقاً ثم دخل الرجال يحملون أبي على أيديهم، كانت ساقه ملفوفة، ولم نصدق ما نرى.. نهض أخي واختي من فراشيهما يستطلعان الأمر.. وبعد أن جلس الرجال قليلاً.. انصرفوا.. وحين تطلعنا لوجه أبي الشاحب طرق الباب من جديد فقد أتوا له بالطبيب الشعبي الذي نصحه بأن يغلي أوراق الاوكاليبتوس ويضعها على ساقه المبتورة.. ثم كشف الطبيب عن ساق أبي صعقنا لمنظرها وانخرطنا جميعاً في البكاء.

– لا تحزني يا نجية لقد كان حادث مشرف.. فقد سقط صندوق الذخيرة على رجلي.. وحملني الرجال لمسافات وأنا أنزف.. ثم قرر الطبيب بترها.. في البداية خفت ورحت أتوسل إلاّ أنني بعد ذلك استسلمت وتركته يقطعها، كي لا يصاب جسدي كله بالغرغرينا.. سأتابع يا نجية.. فقد بقيت لي رجل واحدة، سأطوف بها في أنحاء دمشق.. أدق على بيوت الناس أسحرهم.. وأؤذن وأقف على نهر بردى.. وأتمشى على فروعه السبعة، وتخيلته كيف سيصعد درجات المئذنة برجل واحدة..

وكيف سيرتفع صوته الجميل مردداً الله أكبر...

تصعّد القتال... وصارت أمي تخدم زوجها... وافتقدنا صوت أبي الجهوري في المئذنة والتراحيب التي يرددها قبل الأذان..

ومع فجر منتصف نيسان بقليل.. تنفست دمشق تحت سماء قاسيون، وصارت المرجة ساحة للرقص والفرح بعد الجلاء... وفي سوق الحميدية.. فتح التجار مخازنهم ووزعوا الحلوى والكنافة.. وعادت رائحته تعبق بالعطارة، والقطن المندوف والبوظة الدمشقية.. والحرير الدمشقي.. يمتد في الطريق، وسجاجيد الصلاة.. ونزلت الشمس تمشط جدائل الغوطة حيث تفتح زهر اللوز والمشمش الحموي.

قرص الرادار ما زال يدور.. يلف بحمق والرمال تلسعني تدخل جرحي فأشعر به كالملح يحرق كل حياتي التي أوصاني بها أبي قبل موته قائلاً:

يا ابني الجهاد والصلاة..

وخرج نعشه بين الأزقة وصلى عليه الرجال في المسجد الذي كان يؤذن فيه وبقيت صورته في منتصف الحائط تهتف بين حين وآخر...:

(يا بني.. قبل البدء بأي شيء عليكم بالصلاة).. وقبل الالتحاق بالجبهة صليت.. لكنني أصبت.. وبدلاً من أن أفتح عيناي على الجولان اشتممت رائحة البحر المالح ورمال الصحراء... وكنت قد حملت معي بعضاً من أوراق النارنج والأوكاليبتوس.. لتذكرني ببيتي وبدفء النضال...

صعدت الى ظهر الدبابة.. ألقيت نظرة حرة.. امتدت الصحراء أمامي.. ظهرت أمي بمئزرها الأبيض وحارات دمشق من خلفها واشتممت رائحة الأماكن العطنة وأسواق دمشق العتيقة امتزجت بعبير القدس وحاراتها القديمة وباعة الحلوى... والدكاكين ذات الأقواس المنحنية.. تحت المسجد الأموي والأقصى.. سمعت هتافاً يرتفع: الله أكبر...

وحين اقترب الجند لاعتقال أبي لمحت بينهم اليهودي العتيق الذي كان يأتي الى الحارات يشتري الأنتيكا.. كان هو الذي وشى بأبي.. الآن أنعه يتجول بحارات القدس... ينحني طفل يلتقط حجراً... من أرض القدس... وبجواره طفل آخر كان قد حمل الحجارة يوماً في أرض دمشق..

يصير الحجر زهرة تتفتح على أسوار المدينتين...

أتطلع من قمرة الدبابة ألمح القدس تناديني.. تبتعد عني رائحة الصحراء... أسرع في مسيري أسمعهم ينذرونني.. أهذي أعطي اشارات للقائد... سيدي إنني أتجه الى القدس...

– توقف.. يأتيني صوته عبر اللاسلكي...

افسحوا لي المجال لم يبق سوى خطوات هأنذا ألمح الجنود العرب كلهم خلفي... ألم تكلفني أن أقود السرية بالاتجاه الصحيح...؟

– توقف

لقد أصابه مس... إنه مخبول

انطلقت بدبابتي.. سأخترق الآن كل الحواجز، وأعبر الى القدس.. تنقلب الدبابة يطل وجه أبي... الله أكبر... يردد صوته على مآذن الشحم... لا بل على مآذن المسجد الأموي... والأقصى والمسجد النبوي.. دمي ينزف.. انتهت العملية.. أحمل جريحاً الى خيمتي.. أحد ما ذهب يحضر شيئاً ليضمد جراحي، ويأتي حاملاً بعض أوراق الصبر... اعصروه على الجرح يتوقف النزيف.. وأهتف... لا.. أحضروا لي ورق الأوكالبتوس.. إنه يرقي جرحي.. أما الصبر فلن يوقف النزيف، إنه يرهل الجلد يغيره...!

لا يوجد هنا أوكاليبتوس.. ولا ورد جوري بل صبار وأشواك تعمر القلب...

الأشواك تملأ جراحي.. لا ينبت الأوكاليبتوس إلاّ في المدن العامرة.. دمشق، القدس... أمد يدي لأقطف منه ورقه... لكن يدي كانت قد بترت...!!

obeikandl.com

المــوت الأصفــر

الليل ساكن وحزين.. الشوارع خاوية إلاّ من غربة مستوطنة تعزف لحنها بين البشر، غرفة الكاتدرائية قاتمة وحزينة... لا شيء سوى أشجار البلوط المحنية الظهر، تنوح أغصانها على النافذة تنعي معنى الخلود الميت الذي نلبسه إياها ثم نمارس الدمار... صوت عقارب الساعة يلاحقني، يعطي نبضاً يجعلني أتقدم ثم يأتي نبض آخر غريب ووحيد يدفعني للتراجع... مئات الوجوه الحزينة من البشر أراها تطل كاسفة عبر قضبان الكاتدرائية، تحاول التلصص لمعرفة جثث قتلاها، بعدما توالت الجثث عبر أكياس النفايات البشرية.. يا للفظاعة انسان يعيش ويحب ويفكر يصبح مجرد نفاية بشرية يعلبونها بأكياس النايلون، مجرد أشلاء قدم أو كتف ووجه مهشم، وعلى كيس النايلون تثبت الرتبة كولونيل... مارشال..، وأنا أعبر وسط تلك الجثث، والناسك الذي يلحق بي من أجل الصلاة على الجثث أشعر ذاتي أتقيأ بينما النبض الغريب يلاحقني، وقد قررنا أن ندخل الكاتدرائية بعيد منتصف الليل كي لا تلحظنا أُسر الضباط المقتولين، لكنهم تسللوا الى الكاتدرائية وكانوا قبلنا.. ثمة وجوه تحدق من خلف أكياس النايلون، تشبه تلك الوجوه المطلة على الزجاج، لا فرق بينهما وحتى نظرة الفزع المرتسمة على الوجوه المهشمة، واحدة تشبه تلك المطلة من خلف الزجاج، خلسة أمد يدي لتصافح بعضهم يا لرعبي.. ثمة أيدٍ ما زالت حارة تحاول أن تشد على يدي وبعضها تنزف دماء تلطخ وجهي، في الخارج تمتد الأيادي متوسلة لعلها تحظى بجثة قريب أو حبيب، لكن القائد الأكبر يصر بوجهه المتفرّس أن نتجاهلهم ويأمر بإرخاء الستائر السوداء لتبدو سميكة..

بيننا وبين البشر.. بعد السير لمدة ساعة بين الجثث بدأت أخلط تماماً بين الحياة والموت واعتقدت ذاتي أنني جثة أخرى نهضت من بين الأموات، لعلني مجندة أتوا بها قامت تبحث عن أشلائها.. آه هذا الوجه أعرفه وهذه اليد، إذ قبل بدء الحرب كنت أعمل في مختبر أبحاث (الأجيال القادمة السعيدة) الواقع في الطابق العلوي من الكاتدرائية. وقد أصّر بعض الجنود أن نأخذ منهم بعض الحيوانات المنوية التي نقوم بتجميدها واستعمالها فيما بعد وأحياناً كنا نجمد أجنة صغيرة.

كنت أرقبها يومياً هذا العقيد المصغر، ذاك الرائد، والمجند لكن لماذا كل ذلك وكانت وصية كل أب لطفله القادم أن يبحث عن السلام وكنا نكتب وصية كل منهم على أنبوب صغير حتى إذا كبر الجنين قرأها.

«يا لسخف الانسان يبحث عن مستقبله ويدمر ما به من حاضر...» قلت في نفسي.. وكنت أرقب الأجنة بعين، وبعين أخرى أتابع أخبار الجنود والمعركة.. حتى صرت ألعب لعبة مسلية.. ماذا لو أن العالم صَغُرَ وصار بحاجة لمساحة قدر المختبر.. ألا تكفي لمثل هذه الأجنة للعيش بسلام، ويكفوا عن التناحر واستلاب الأرض...؟

تابعنا المسير والبحث وسط الجثث رائحة الكاتدرائية رطبة، ثمة طحالب سوداء تنمو على جدرانها، وفي مقدمة الكاتدرائية صورة للمسيح المصلوب وعلى الجانب الآخر صورة الحرب للفنان غويا.

أتطلع في وجه الراهب الذي انحنى للمسيح ورسم صلواته وصلبانه بينما يقف الكولونيل متأملاً وحشية القتل في صورة غويا وهو يهتف لنفسه..

يا لفظاعة الانسان انظروا للحرب الإسبانية كم كانت بشعة..

وكدت أهتف سيدي.. ولكن، الآن ماذا عن الحرب المشتعلة.. لكني وجدت ذاتي ألتهم الصمت وأنه لا صوت لي، وعاد شعور آخر يساورني

انني واحدة من الجثث الميتة، وأن هذا كابوس يجري أمامي وزاد من رعبي أنني بدأت أرى الدم يشخب من رأسي ووجهي، وبدأت الأشلاء ترقص أشباحاً أمام ناظري بينما لمحت أجنة المجندين ترقص في أنابيبها متوعدة في وجهي، آه إني أشعر ببرودة المكان القاتلة ورائحته العفنة ورائحة الجثث، لو تنهض جثة وتحضنني أو يد ميتة تشد على يدي، وأتوقف أمام كيس نايلون أنيق إلاّ من الدم الذي يتفشى على جنباته واقرأ:

ميجر (ميكل) لا يفاجئني وجوده هنا بل يفاجئني لو عاد الى المخبر سالماً وقال إنه حيٌ بعد هذا الدمار... ميكل.. بشعره الأشقر، وعيناه الزرقاوان، بقامته الطويلة المسروقة من القمر.. حين جاء الى المخبر يطلب تخليده، ووجدت ذاتي أقتنصه، رجل مثل هذا هل يحتاج الى خلود...؟ لا لن يقتل في المعركة أليست المعركة لقتل المُلّونين..؟ والضعفاء (هذا ما تنادي به أميركا)... وكأنه فهم أعماقي.. ووجدت ذاتي أخرج وإياه في البراري.. ذهبنا إلى حيث منطقة نائية إلى حيث أرض ذهبية من ورق البلوط المتساقط، ورغم كرهي للموت، إلاّ أنني عانقت ذلك البساط الذهبي من الأوراق المتساقطة وشاهدته يحمل كومة من الأوراق يلقيها على عشب نابت تحت شجرة بلوط خضراء حية، وهناك أودع بذرة حياته في جسدي الغض.. وهو يردد:

«سأرجع من الحرب لنعقد صفقة حب بدلاً من الحرب وسأجد طفلي حياً في جسد حي بدلاً من الأنابيب التافهة».

ومن الصحراء كتب لي:

«لا يوجد فرق كبير بين العالم الغربي والعربي.. فصحراؤنا الخضراء ليست أجمل من صحرائهم البنية، وأحلام الإنسان هنا تشبه أحلام الإنسان هناك، حتى آمال الجنود، إنهم مثلنا يحنون للسلام وللبيت وللعائلة.. لكن ثمة ألعاب كبيرة، وألعاب شيطانية تمارس باسم الشعوب، وباسم عبارات

جوفاء فارغة وثمة أرباب للشياطين يقودون الشعوب نحو الهاوية.. عندما ستنتهي الحرب سأترك الجيش لأعيش معك ومع طفلينا الذي سيكون تاريخنا..صلّى من أجلنا» ولم يرجع أبداً...

صوت الساعتين ما زال يتلاحق، وفي الطابق الأعلى حيث أُقيم معهد الأبحاث للتمويه.. أرى أن الأجنة القزمة قد صارت أشلاء ميتة، وأن الأنابيب التي نحضنها بها ما هي إلا أكياس للبقايا البشرية.. ما الفرق؟ أليس العالم كله وجهان لعملة واحدة؟ ها هم يقيمون معهد الأبحاث المتطور وأسفل منه مباشرة محرقة لجثث الجنود.. وباسم السلام يمارسون أكبر عملية للقتل... وباسم الأديان يكتبون أوسع زندقة وإلحاد...

لوحة غويا أراها تقطر دماً، ومن قلب المسيح ألمح فيضاً من الدم، ثم أجد يديه تنضمان ليصير جسداً واحداً أرى فيه جسد محمد يحمل رسالة واحدة تكمل رسالة المسيح. من بعيد ألمح الخضر يقتل التنين لعله التنين الذي صار هكذا من القتل والتدمير الرابض في أعماق كل منا...

الكولونيل يتقدم، ويتوقف عند جثة مشدوهاً ثم ينادي ونهرع إليه.. انظروا.. ويفك كيس النايلون..قبل أن يفكه ألمح وجه مايكل.. وجهاً أبيض وعينان زرقاوان لكن ما إن يفكه حتى يظهر وجه جندي عربي، وملابس عربية ورتب عربية، ويشهق هل يعقل أنه أتى بالخطأ إلى هنا.. هل كان أسيراً.. كيف شحنوه إلى هنا..؟ لعل بعض قتلانا ظلوا هناك..

ويهتف الراهب لا.. دماؤهم سترويّ الأرض هناك.. أليس العالم كله بقعة واحدة والبشر واحد..؟ ويهتف الكولونيل يا للفضيحة.. والعار هل ندفنه هنا في أرض أميركا..؟ ويعلو صوت الساعتين المتضادين.. يحاول النغم الهادي أن يطغى على الرتيب.. أنا ما زلت مصابة بالصمت. سوى نبض جنين مايكل في أحشائي.. أسمعه لأول مرة يتواتر مع نبض الأجنة في أنابيب الاختبار في الطابق العلوي.. لعل صوت الساعة هو صوت قيامتهم..؟ ولعله نبض قلوبهم يا إلهي.. أين نحن في سراديب الموت والدمار.. نحاول أن نصنع من القذارة والقتل أسطورة تمجيد وكرامة

وملحمة للشعوب خالدة ومهزلة أرضية هائلة...

وأتطلع فيما حولي... يا إلهي وجه الكولونيل بعض من دراكولا لماذا أطعته..؟ لماذا نصبته دليلاً على ذاتي..؟ وسرت خلفه حتى ولو لخطوات..؟

أستنجد بالراهب لماذا سكت على الكولونيل.. لماذا سرنا في السرداب المظلم نحمل شمعة واهنة انطفأت في أول الدرب.. وحتى أنا تواطئت معهما وسرت في درب مخجل أُواسي ذاتي.. إني حملت بطفلٍ حي لا صناعي في أنابيب التجربة.. ووجوه الشر في الخارج لماذا صمتت عن المسرحية.. لماذا لم تكسر النوافذ وتدخل تمزقنا تمزق المجانين الثلاثة الذين نمارس لعبة الوصاية، والخلق والفناء.

وحتى الموتى لماذا لم يمزقوا أكياس النايلون ويصرخوا. لماذا لم يحتج العالم.. وحتى الأجنة التي في الطابق العلوي من قال لها أنها ستعيش بسلام ورخاء وعالم بلا سلاح وهي نتاج أبناء حرب..؟

حتى من قتلوا وشبعوا موتاً أراهم ينهضون من قيامتهم ليساهموا في قتل أخير، أليس هذا الوجه البشري الذي خلف كيس النايلون رجل من اليابان؟ أليست تلك البقعة الشوهاء بعضاً من هيروشيما..؟ هل سادية القتل تتفجر في الانسان..؟ دعونا نصلي على موتانا يهتف الراهب..

لكن أعماقي لم تصمت وصوت عقارب الساعتين المتضادتين يدمر بعضه...

يقترب من أحد الجثث لينتزع صليباً من رقبته.. صليب ذهبي – لعله أغراه الذهب المتدلي من رقبته. آه ثمة انفجار مدوي ويصرخ الراهب.. الذهب الصليب مرتبط بلغم في جيب الميت.. الدمار امتد شمل المبنى.. دمر الأجنة القادمة.. ووجوه الناس المرتقبة والجثث الميتة والكولونيل وأنا.. في الغد نبتت شجرة موت أصفر يابسة وانكسرت عقارب الساعة...

١٩٩١/٢/٢٣

الجـــنرال

عندما انتهت المعركة كان المساء كئيباً وسط الأشياء المبعثرة، وصوت المذيع الذي يعلن عن التراجع وعقد هدنة بين الأطراف وتوقف القتال.

لم تتنفس الصعداء.. ولم نفرح إذ أن الخوض في معارك قاسية لا تميز بين الحياة والموت تحول الانسان إلى شبح يدوس على مئات الجثث والضحايا التي تشده بعنف لينام نومتها بينما تتفسخ الأجساد وتنتفخ وتصعد رائحتها النتنة.

كان الجنرال آخر الضحايا.. وكان من الضروري أن نعبر بجثته عبر نقطة تفتيش العدو دون أن ينتبهوا الى حقيقة شخصيته وإلاّ صادروها ومثلوا بها.

وكان موته مفجعاً لنا إذ كنا متمركزين في قلعة متينة، وكانت قذائفنا تنطلق قوية مقهقرة جيش العدو. وفي الفترة الأخيرة تناقصت الذخيرة والغذاء، وبتنا محاصرين في المواقع نستمع لأوامره العنيدة دون وجل منه أو تراجع واكتشفنا أن هنالك سلحفاة نبتت من أحد الشقوق وكانت تحوم وحيدة ترقبنا.. عندما تسمع صوت الجنرال ملعلعاً تختبئ في صدفتها مخفية رأسها ويديها، ثم تعاود الظهور واللف من حولنا.. وعندما كان يهدأ القصف ليلاً إلاّ من بعض الطلقات الحمراء التي تنبئ بوجود مواقع الجيش كنا نجلس نتسامر.

في احدى الليالي خطر ببال الجنرال أن يحضر شمعة ويثبتها على ظهر السلحفاة ويضيئها، والتي أخذت تدور على نفسها راسمة أشكال أشباح على جدران القلعة وكأننا أشخاص افلاطون في كفهه المثالي لفنا صمت

طويل.. وابتدأنا ننظر في الوجوه الشاحبة القلقة، ثم اخترق الصمت صوت أحدهم مردداً: ترى متى تضع الحرب أوزارها ويفك الحصار ثم ردد الثاني وسط تنهيدة طويلة إن القلعة المظلمة وأشباحنا الظاهرة تشبه كهوف العصور الحجرية، وتساءل ماذا لو أن البشر قد فنوا جميعهم؟ آنذاك يجب أن يبدأ رجل وامرأة وتخيلنا صورة رجل مثل انكيدو وامرأة يتضاجعان بينما تتوالد ظلالهما على جدران الكهف مولدة بشراً آخرين.

وتحدث جندي بلهجة حزينة ساخرة عن علاقة كانت بينه وبين احدى نساء العدو وقد كانت حبلى، وظل ينتظرها حتى تضع طفلها ويقترن بها، لكن في حمأة دخول جنوده الى القرية وخروج النسوة الى الشوارع، أطلق عليها وعلى غيرها طلقات حولت النساء الى لحم معجون بالدماء.

تصاعدت رائحة التبغ والعفونة ذكرتنا بالمستنقعات التي كنا نلقي بها بجثث الناس، فتطفو وسط نقيق الضفادع المحتجة، وكأنها تتوعدنا بعالم آخر نلتقي به ويصفى الحساب.

تطلعنا في وجه الجنرال كان ساكناً وصمت مهيب يلفعه، كان من أثرياء المدينة حتى أن مصاغ زوجته ومجوهراتها كانت موزعة في بنوك عديدة، وكنت أعمل مرافقاً له، إذ كثيراً ما اصطحبني معه حتى في أكثر مشاويره السرية.

قبل بدء المعركة بيوم واحد اصطحبني معه في زيارة غريبة، إذ حسب علمي أننا متوجهان الى أحد البنوك التي يخبئ فيها أمواله وأشياءه الثمينة دخل الى المبنى تحدث الى أحد الموظفين ثم اصطحبنا عبر ممرات طويلة، كانت عيون الموظفين ترمقنا بحسد.. سرت خلفه من سرداب لآخر، ثم هبط أحد الأدراج المعتمة وتوقف أمام باب خزنة حديدية وشبك كبير أشبه ما يكون بأبواب السجون، أخرج الموظف المفتاح وعالج الباب الذي انفتح ودخلنا الى غرفة أنيقة مملوءة بالصناديق الحديدية، أخرج الجنرال مفتاحاً

ذهبياً ثم تقدم من صندوق حديدي يفتحه بيما راح قلبي يخفق فرحاً بما سأراه من مجوهرات وكميات هائلة من الذهب، وفي سري ظننت أنه سيجعل مني وصياً على أمواله حيال زوجته وأطفاله بعد موته.

دخل خلف ستارة مخملية أنيقة ونادى عليّ كان هنالك مرآة جميلة انعكس فيها وجهه وهو يعالج الصندوق، ثم فتحه وطلب مني الاقتراب أكثر.. كانت قطعة شاش صفراء عتيقة ملفوف بها جسم غامض وخلت أنه يلف الذهب خوفاً عليه من التلف، طلب مني أن أفتحها.. أمسكتها كانت صلبة بدأت بفك ربطتها.. بدأت أشعر بجسم صلب، وكلما حللت الربطة شعرت بأني أوغل الى عالم قديم باهت، فجأة ظهرت أمامي أصابع صفراء بشرية كدت أتراجع لكنه تطلع اليّ بنظرة أمرة، وتابعت العمل حتى ظهرت أمامي يد مبتورة من الساعد، انطلقت مني شهقة أوقفتها نظراته الحادة تخيلتها في الليل تدق على كل الصناديق والأبواب المقفلة..

أمسكها بين يديه.. قلبها.. صافحها ثم أعادها الى مكانها ولفها في قطعة الشاش، ثم أغلق الصندوق، خرجنا وكأننا نسير في موكب جنائزي بعد أن هدأ من روعي جلسنا في بيته نحتسي الشاي تحدث لي قائلاً لقد خضت معارك كثيرة قتلت من الأرواح البريئة ما يقشعر له البدن حتى خلت نفسي سيداً للموت أقف وسط معركة الخراف إذ أن من يقتل مرة يستمريء الأمر.. وتصبح الحياة بالنسبة له شيئاً مقيتاً إلاّ وسط الدماء النازفة.. ومعها تتلبد الأحاسيس وعامة الناس يصفقون له ويلقبونه بطلاً.. ويتعرى الذئب الكامن في أعماق كل منا.. وفي احدى المعارك دخلنا قرية آمنة، كان هنالك شيخ عجوز يفلح أرضه ويرمم الدمار.. ويبني ما تهدم من البيوت بصمت.. شعرت بإكبار له ممزوج بالحقد، وطلبت من الجنود أن يحضروا لي أفضل من في القرية.. أحضروا المختار وجدته شخصية ثرثارة توهم البسطاء بأهميتها بينما هي تقود الخراف، احضروا أستاذ المدرسة..

وجدته هيكلاً مثبتاً في إطار من العلم غير مجد.. أحضروا شاعرها وجدته حالما مأفوناً يعلق قصائده على أشجار القرية..

وحده الفلاح العجوز من ظل يؤرقني.. حتى خلت أنه يزرع حكمته في الأرض لتنبت أشجاراً من التعقل لتنبت في عقول الناس، كان وجهه يمزق أعماقي.. أقارن بين شبابي القذر وشيخوخته النبيلة.. وتبعته الى حقله وأنا أنظر العرق يتصبب منه حملت مسدسي.. ناديت عليه. لم يتطلع إليّ.. أطلقت رصاصي.. تعفر في التراب.. وسقط ميتاً وعلى وجهه بسمة ساخرة حطمتني.

اقتربت منه طلبت من الجنود أن يجزوا يده.. حنطتها واحتفظت بها.. كلما أردت الدخول إلى معركة ذهبت أنظر إليها فأتمثل الصراع في الكون.. ومئات البشر القادمين والحرب القادمة، بينما ظلت حبات من التراب عالقة بها وكأنها أقوى مني.. بعدها دخلنا المعركة، في الصباح اكتشفنا أن السلحفاة قد قفزت من القلعة وتهشمت، وظلت أشعة الشمس تأكل من لحمها حتى ظهرت صدفتها مجرد قطعة عظمية فارغة، مضى النهار كئيباً وسط مزاج الجنرال السيء والذي ما أن حل المساء حتى دخل في هذيان وحمى مفاجئة، وكأن القلعة تعج بمئات الأرواح والأشباح.. وكان يتخيل أيادي تمتد لخنقه حتى إذا اشتد الظلام واشتدت كوابيسه أرخى رأسه ومات وحيداً.. وظهرت أمامنا مشكلة كبرى وهي تمرير جثته دون أخذها من قبل جيش الأعداء إذ أن القيادة تطالبنا بجثته. واحترنا فيما نفعله ثم اقترح أحدهم أن نقطع رأسه ونجوف أحشاءه ونحشوه هناك فيعبر مع جثث الموتى على أساس أنه جسد بلا رأس وأن الرأس تطاير دون أن ندري إلى أين..

وبدأ الجراح يعمل.. فتح البطن.. ثم أخرج الأمعاء واقترب من الرأس ليجزه.. كنت خائفاً وتساءلت هل الجراح بطريقة أو أخرى جزار آخر..

أصابني القرف.. أمسك الرأس جففه من الدماء.. ثم وضعه داخل البطن.. وقفنا جميعاً وسط الطابور.. أدينا التحية له وتخيلت أن هنالك يداً تؤدي له التحية ملفوفة بالشاش أمام نظرات عينيه القاتلة.

حمل الجراح الأمعاء ليعطيها لأحدهم ليقوم بدفنها وهو يردد يبدو أن هنالك خطأ واضحاً ما بين مكان الرأس والأمعاء عنده.. إذ أنها منتفخة.. بينما الرأس ضامر.. وفي نفسي تساءلت هل كان مثل ذلك يصلح أن يخوض المعارك ويلقي أوامره.. أم أنها شهوات كانت تحمله وتعطش للدماء لكل ذلك القتل.. بعد الحصار اتجهنا عائدين نحمل جثثاً كثيرة.. عبرنا نقطة الحدود صعد الجندي، فتش جثث الموتى.. تطلع الى جثة منتفخة ثم سأل أين الرأس؟

اقترب أكثر وهتف لكن ما بال البطن منتفخ وصاح بدهشة يا إلهي إنها الديدان تخرج منه.. هتف الطبيب حقاً لقد خرجت من مكانها الطبيعي.. لم أعلق.. تخيلت كل المعارك التي خاضها كانت قاسية جداً، تخيلت الأوامر التي كنا نتلقاها بتدمير مدينة وكأنها مجرد دودة.

لم نعلق شيئاً.. تطلعنا الى الجثة.. بصق الجندي وهبط الى مكانه.. أما نحن فقد تابعنا السير الى أرض جديدة نحمل الجثث وأنا أفكر في اليد المخبوءة في الصناديق الحديدية وعما جرى لها.. وأمامي كانت مساحات شاسعة من الحقول تتمايل فيها غرسات نبات عباد الشمس.

سفينـــة الســـلام

أمـواج الميـاه تتلاحـق تبتلع ذاتهـا مثـل عمر الكـون، صـوت السفينـة يرتج عبـر الميـاه يعـطي صوتـاً بلا إيقـاع، أو صدى يتلاشى في البعيـد خلـف عبـاب الميـاه... والسفينـة تبحـر إلى نقطـة مجهـولـة، مثـل إنسان يتيه بحثـاً عن ذاتـه الحقيقـة.. قبـل قليـل أنهيت صلاتـي.. وقبلّت صحائف كتابي المقدس، ثم ودعنا المدينة التي لم يبق منها سوى طيف أضوائها بينما اندثر ضجيجها وحديث أناسها وصوت ساكنيها ومشاكلهم وحياتهم.

دخان السفينة ينفث من المدخنة، ثم يتبدد مثل عمر عابر، بينما أضواؤها تنعكس على البحر تعطي ضوءاً قرمزياً.. بعد قليل سترسو في مينائها، ويتجمع أطفال جياع في انتظار الحليب بينما أترك خلفي في القرية حيث عملت راهبة وقابلة في أحد الأديرة، وقد نذرت نفسي للصلاة من أجل الرب وخلاص الأطفال.. ثمة طفل يشبه أحدب نوتردام.. يلاحقني بقامته القصيرة.. وحدبته ويده الكتعاء.. وخطواته المبعثرة التي ما إن مررت بها في القرية حتى أدركت أنه كان هنا، ثم اختفى.. وحتى عندما توقفت يوماً أرقب جمال شجرة رمان بما تحمله من زهر الجلنار.. صفعتني رؤيا قدميه وخلته خلف حائط يتربص بي.. ثم هرولت الى الدير وغرقت في الصلاة ودققت الناقوس، كان أهل القرية يدركون أن حدثاً ما يجري دون أن يعلموا أنني أنا من هي طريق خلاصهم في الحياة وبعد الممات. أعماقي تضطرب، وعينا الطفل المعتوه تطاردني تطلب خلاصاً من حياة أدخلته إليها عنوة.

منذ بدأت السفينة رحلتها وأنا أعاني اضطراباً أصلي في الليل وأخشع في النهاروعندما فارقت دفتها الميناء شعرت بزلزال فصل كياني عن اليابسة والناس والبشر.. حتى خلت أن السفينة هي جزء مقتطع من الزمان والمكان لا قرار لها.. لعلها خلقت مثل سفر التكوين أو لعلها بعد الدوي الهائل استقرت هنا، يتلاطمها الموج والظلام...

في أعماقي صلاة..

في اليوم الأول لم يبق سوى الأزرقين الماء والسماء.. وثمة بحّار غامض الأسفار كان يخدم المسافرين بصمت وكأنه يمسح خطاياهم... وفي الليل كان يتحول إلى شجرة مسك بيضاء إذ ألمحه على متن السفينة وسط الظلام بملابسه المصنوعة من القطن الأبيض ورائحة المسك التي تنبعث من جسده فتحيي عمراً كان فيّ ثم انقضى.. والأضواء التي خبت من قبل.. بعد أن هدأ الناس وهجعوا في مخادعهم، صعدت أرقب الليل وصوت الهدير.. والنفوس المشرئبة إلى المجهول ترحل الى هناك حيث الأطفال وحيث حاجز سلكي يلفع رقابهم الغضة.. وأسلحة المتاريس.. وقنابل الموت.. تبعته الى حيث رحل وهناك وجدته نائماً قرب مرجل النار.. ولما سألته قال: هنا اليقين بين الماء وبين النار... ووقفت للحظات خاشعة أستمع سعير النار وهدير الماء وهما يمتزجان في تناغم تلقائي.. وظل الصوت ينوح في أعماقي بعد ولادة الطفل.. وأيقنت أنني أخذت بيد طفل للحياة فوصلها مشوهاً بعد أن ظل محتبساً في الرحم لأيام، ومن في القرية يصلّون ويرتلون من أجل ولادة الطفل من المرأة التي تجرأت وولدتها.. آه أشعر الآن أنني السيد الكبير، وأنيي أقف على ترسانة الأسلحة التي سيولد منها أطفال مشوهين يجوبون الأرض حتى بعد موتهم إذ ستنطلق أشباحهم تبحث عن ذواتها الحقيقية. ليلتها، وكنت أستعد لحفل عرسي وتتويج نفسي سيدة البيت الزوجي في حين ولّدتُ طفلاً معتوهاً، ولم أحتمل فعلتي.. هرولت إلى الدير وظللت أقرع بابه تحت مزاريب المطر حتى أطلت راهبة وفتحت البوابة بوجهها الصارم وهي تستيقظ من نومها مستفسرة..؟ وقلت: خاطئة

تطلب الغفران.. وفي سرها هتفت: أفي هذا الليل البهيم..؟ وأنا أجبت: الخطيئة لا تعرف وقتاً.. وفي سرها تمتمت بأشياء كثيرة.. أدخلتني الى الدير وانخرطت به بينما أفتقدتني قريتي.. وادّعوا أنه قد أصابني لوثة من الجنون.. وانفرط العرس..، منذ ذلك اليوم نذرت نفسي لخدمة الرب والأطفال القادمين الى الحياة..، وما أن سمعت عن السفينة الحاملة الحليب لأطفال الحرب المحاصرين حتى خلعت ذاتي والتحقت بها.. علّ خلاصاً يحلّ في حياتي أو يكف شبح الطفل المعتوه عن ملاحقتي... وحتى في الليل عندما كنت آوي الى فراشي وأستمع لصوت مزاريب المطر في الطرقات كنت أوجس طرقاً على البوابة فأهبط درج الدير ولا أسمع سوى عويلاً مُراً كعواء الذئاب.. كان صراخ المعتوه.. وحين أفتح الباب لا أجد سوى العتمة وزهرة جلنار ملقاة أمامي تحرق وجهي.

في اليوم الثاني، انفصلت السفينة عن العالم وعن سواحله الملوثة بمفرزات الحضارة.. وبدأت تبث رسائلها في كل اتجاه..«سفينة السلام تحمل زاداً وخبزاً للأطفال.. لا شيء سوى السلام..» وكتب الربان على صفحة الماء شارات السلام بدخان وزبد...

ثمة نورس تائه حلّق فوق السفينة، رمقنا بعين قلقة ثم رحل،.... حين كنا في ميناء الجزائر سمعنا صوت انسحاق الأطفال تحت حجارة الاستعمار، وصوت الجوع ورائحة دماء علقت بالسفينة، ومعها نبضت أول قطرة من دماء هابيل المهدورة على الأرض كانت تطاردنا. منذ أبحرت السفينة وأنا ألمح بقعة الدماء تطفو على وجه الماء وكأنها بحر الخطايا، وظلت رائحة الموت الفرعونية تتسامى بأطياب عرائس النيل تلك الأصوات الفاجعة ما زالت في الأفق عالقة بالزمن تبعث نشيجاً يتضافر مع صوت الأطفال الموتى في مدرسة «بحر البقر»..!! تلك الضحايا قُدمت للآلهة ما طالبت يوماً بفداء الإنسان بالدم البشري.. هذا الدم الذي يظل في نواح

غامضاً حتى يصل مجاعة السودان وكل البطون الصغيرة الشاحبة والمنتفخة جوعاً...

وأطلق الربان صافرته فتبددت مثل نواح في الأفق بينما ظهر البحّار الغامض أكثر قلقاً وهو يستمع لأخبار العالم وتصعيد حملات التهديد المطروحة على أرض مدينة السلام..ثم دخل في خشوع وصلاة وهو يحدثنا عن المهزلة البشرية.. هل يعقل أن أقدم بقعة أرض، وأول مكان بدأت فيه الحضارة يكون محطّ اللعنة والدمار؟ أيعقل أن يصير المهد مقبرة؟ .. وانتفضت مثل حمامة مذ بوحة بثيابي السوداء... كيف تكون الأرض مهداً ومقبرة؟ وأين هو مهد الانسان عبر كل هذه المذابح..؟ لعل حمورابي ينتحب الآن في رمسه وقد انكسر الميزان وباتت الشرائع أوراق صحف نمسح بها زجاج حياتنا المغبش حيث الحقيقة تكمن خلف الزجاج، وخلف الأفق الذي لا ندرك.. بينما أونكيدو تتلبسه امرأة الشهوة.. وبريق الذهب فيغزو المدينة فاتحاً. ثمة من يتحدث عن اقتراب العام الجديد، ويبشر بميلاد جديد.. وعام لا يرى الحقيقة مزودجة ولا ينظر لبعض من حقوق البشر ويغض عن البعض الآخر.. أو يكرر المشهد الواحد لآلاف المرات.

بدأنا نحضر لشجرة الميلاد... كان على السفينة بعض الحطب وشجرة حملها البحّار معه.. ظهرت بيضاء من غير سوء... فكرنا أن نعلق عليها الهدايا.. لكننا لم نجد شيئاً نعلقه عليها.. انتصبت الشجرة، كانت خضراء أعصانها تقطر راتنجاً.. لم نحمل معنا شيئاً.. فكرنا أن نجعلها شجرة كونية.. تساءلنا.. لماذا لا يعلق كل منا خطاياه وقربها أمنيته–؟ علق كل من في السفينة شيئاً، أما أنا فلم أجد سوى قلب الصبي المعتوه، وسمعت عواءه يتضافر مع صفير السفينة فانخلع قلبي.. الآن لا بد أنهم جميعاً بانتظارنا.. وكل طفل قد أتى بقصعته ينتظر سكبة الحليب تنهي مسغبة يومه...، والكهنة المحتبسون في أبراجهم يرقبون حركة النجوم ويرتلون الصلوات لنخيل دجلة الذي يمد ضفائره بانتظار السلام، حتى يثمر رطبه الجنيه...،

ليلة الميلاد انفصلنا عن الأرض.. الشواطيء بعيدة ونحن وسط لجة الماء.. لا شيء سوى الماء وزرقة البحر...

القبطان يعلن عن قطع اتصالاته مع الكون.. ثمة قلق يغزو الركاب، إشارات اللاسلكي لم تعد تصل ولا شارة النار والدخان والسفينة لعلها ارتحلت بعيداً عن العالم، لعل الحرب قد اندلعت ولم يبق من العالم شيء، لعل نار الحرب قد توهجت ثم انطفأت في سراب أبدي...

الليل لا ينتهي والرقص الذي كان من المفروض له أن يبدأ ألغي أمام رعب القبطان والنورس الغريب الذي طاردنا مثل لعنة شؤم ها هو يحلق.. يقف في أعلى الشجرة.. ها هو القبطان يتقدم من النورس ويزجره صوب الشرق عله يعود اليه بخبر.. وظل الليل يحيط بنا دون اتصال بالعالم، أذكر أن آخر مكان دخلناه هو بحر العرب، وكان ثمة ضوء يلوح في الأفق يبشر بمنارة.. لكن الطائر عاد بعد زمن لست أدرك حقيقته جائعاً وبعد أن مسحنا عنه جوعه أطلقناه شمالاً فعاد مضطرباً مخبولاً.. وبعد صحوة أطلقناه جنوباً فعاد جائعاً متعباً.. وصوب الغرب عاد مذبوحاً يقطر دماءً قانية...

السفينة ما زالت تتهادى تمعن في التيه.. إلى أين..؟

لا أحد يجيب..

والحليب..؟

وأرض سامراء... وفي سري أهتف: ماذا لو فك الحصار.. ووصل الحليب للأطفال...؟ سيكون هنالك أطفال آخرون يحاصرون ويزج بهم في أتون معارك من صنع الشيطان...

ما بال خطيئتي لم تغتفر..؟ ما بال قربان قابيل لم يرفع حتى الآن..؟ وجراح ابن الانسان أما آن لها أن تجف..؟

ما بال الأرض لا تشبع من دمائنا..؟

أبحث عن البحّار فلا أجده.. وأدور هنا وهناك... السفينة تائهة.. البحار تائه.. الاتصال منقطع من الأرض وقد يكون مع السماء...

بعدما وقفنا مثل نوارس خاشعة نصلي في ليل بحري مظلم.. من بين الآفاق يبرز وجه البحّار.. أتطلع إليه بود.. فتطفو صلاتي على وجه الماء...

الآن إن غرقت السفينة، فلن يكون هناك شيء، ورسائلنا التي نبثها عبر اللجاجة الزرقاء سلام.. حب... سلام.. وبعد ذلك لا شيء.

لأول مرة تبدو معاني الكون في أعماقي أكثر ظهوراً.. فأكاد أمحّص ذاتي بأكملها يخيل لي أن السلام يبدأ من هنا... من هذه السفينة، وقبل أن ترسو من جديد على شاطيء مدمّى.. اقترب من الرجل البحار «إن لم يكن في أعماق الانسان سلام فلا سلام في الكون وبيني وبين أخي...»

أشعر به يغمرني حباً، سنوات القحط التي عشتها في حياتي لم تصنع عالماً جديداً، ولم تمح عنه الطفل السفينة ضائعة فلتكن هذه سفينتنا وأرضنا والطفل المرتقب الذي سيولد ليلة الميلاد لم يولد بعد ولن يولد إلاّ من صفاء أنفسنا.

أقترب من الرجل.. أخلع ثياب الرهينة.. أعانقه.. أكتشف أن الأديان أبسط من كل ما نقتتل عليه ومن أجله.. وأن الحب أبسط وأقوى مما نختلقه من ترهات ومعلقات مزيفة اتحد بالرجل أتحدى كل الجزر والشواطيء وأبدأ وإياه بصنع طفل قادم.. ومدينة استقرار قادمة...

يا إلهي.. الان فقط الطفل المعتوه يصمت.. والنورس يغفو.. ونوح يرقد في سبات بحريّ.. والطوفان يتوقف.. سيصل الحليب للأطفال.. حين نفك الحصار عن أشياء كثيرة.. عن عقولنا المغلقة.. عن عدوانيتنا المتوحشة.. حين يصير القلب رفة ماء.. وأي بيت بقعة سلام في الأرض.. والعالم رجل وامرأة وطفل.. والكون لؤلؤة ترقص على نغم الناي... وهذا كل شيء..

ما زالت السفينة ترسل إشاراتها إلى شتات الكون...

القـط الأســود

اقسم لكم أن قصتي حقيقية ولا علاقة لها بادجار بو وإرهاصاته.. كان ذلك في آخر يوم رمضاني في لحظاته الأخيرة المحتضرة حين تصفر الشمس ويمتد طيف صامت على وجه المدينة، وتتسارع السيارات بركابها للانضمام الى الموائد الممتدة، حيث تجف الحلوق وتجأر الجوارح بمختلجات النفس لحظتها كنت أقود سيارتي باتجاه البيت للانضمام الى مائدة الافطار التي تأخرت عنها بعدما نسيت ذاتي في المقبرة الوادعة.. إذ ما أن انتصف النهار وصار قرص الشمس في كبد السماء، حتى اصطحبت صغيري وذهبنا الى المقبرة لنزور قبر أمي الذي لم يجف بعد. حملت لها زيتونة بعدما ترددت في أخذ شجرة بلوط تخلد ذكرها، لكني تذكرت نور المشكاة المضاءة بزيت شرقي.

تركت من خلفي المدينة بصخبها وضجيجها وسياراتها المتسارعة وأصوات باعتها، وخطوات المارة المبعثرة هنا وهناك، وانفلت من كل ذلك إلى السكون الكوني حيث مستقر الأجساد الأبدي، وحين وصلتها لفني سكون عميق وكأنني اخترق حجب الغيب إلى حيث بؤرة الصمت الحقيقة، أوقفت سيارتي وحملت شتلة الزيتون وسرت بين شواهد القبور يسبقني إليها الطير والفراشات المحلقة وما بين أشعة الشمس الصفراء الباهتة بحثت عن قبر أمي.. حيث تجسدت لي بكفنها الأبيض ويديها المضمومتان على صدرها في خشوع وعطش الحطب الذي استوطن حلقها قبل مغادرة الروح لها.

اقترب الحفار يحمل فأسه ثم توقف عند رأسها.. أومأت اليه فبدأ يحفر

وصوت الفأس يبعث رنيناً وكأنه يمزق حجب الغيب بحثاً عن قرار ظل، يحفر وأنا أغوص في شتات هلامي، وأنا أفكر كيف أودعت رحم الأرض جسد أمي.. ماذا لو أطل وجهها من بين حفنات التراب.. هل حقاً سيودعني مستقبلاً طفلي مثل هذا القبر الموحش.. تنبهت الى الحفرة التي صارت.. أمسكت الشتلة وتلوت عليها بعض الآيات القرآنية ثم غرستها مباشرة فوق رأسها، وبدأت أردم الحفرة التي ساعدني الحفار على ردمها.. وفي لحظة مباغتة مست يده يدي فأوجست منه خيفة، طلبت من طفلي أن يفعل مثلي فامتدت يده تنثر التراب على قبر جدته، بينما ذهب الحفار يحضر الماء ليسقي الشجرة، وحين عاد وسكب الماء ظهر ثقب كبير في الأرض تسربت منه المياه إلى القبر محدثة صوت خوار ارعبني وتذكرت العطش الذي استولى عليها وقت احتضارها إذ امسكت قطعة من القطن بللتها في الماء وعصرتها في فمها فمدت لسانها ترتشف آخر قطرة عالقة بالقطنة وكأنها ترتشف آخر قطرات الحياة.

انتبه الحفار للثقب وراح يردم الحفرة وأنا خرجت من المقبرة خائفة والشمس تودعني كآخر غروب لها على وجه الأرض وصوت ارتشاف الماء وخوار الحفرة يصمان اذني.. تساءلت أين ذهبت تلك الكمية من الماء أتراها ارتشفتها أمي.. أم أن الماء لطخ كفنها بالطين فزاد من زهدها في الحياة إذ كانت أمي في رقدتها الأخيرة تشبه ناسكة حيث لحظة الصدق الأزلية التي تتساقط فيها الأقنعة وتنسلخ الوجوه يومها لأول مرة أواجه نفسي وأدرك طيشي وعبثي في الحياة... تمنيت لو كنت مكانها وأشعر بكل الطمأنينة التي تطل من وجهها وقد زرعت دربها بالطهر والصلوات العظام وحين اختليت للحظات بجثمانها أجهشت بالبكاء، ضارعة لالهي أن أتبع دربها الأبيض وأهجر دنياي الصاخبة.

انتبهت على صوت صغيري يحذرني من دهس قط يقف على قارعة الطريق، وبلحظة كنت أنسل من موج الشرود وأحاول تجنب دهس القط

الذي بدا لي أسود اللون وكأنه قدر يتربص بي.. حرفت السيارة باتجاه اليمين قفز باتجاهها.. ضغطت على الفرامل.. لكنني رفعت رجلي عندما أدركت أنني موشكة على الهلاك لا محالة.. حرفتها صوب اليسار قفز في وجهي ثم ارتطم بالزجاج الأمامي وانزلق تحت عجلات السيارة وانا زعقت معها ولم تتوقف إلاّ بعد أمتار...

كنت أرتجف وأبكي وأنا أردد قتلته.. قتلته.. فكرت أن أرجع وأتفقده لكنني كنت خائفة وأنا أردد قتلت نفساً.. لا لا إنه حيوان من أين ظهر لي ولماذا تربص بي لماذا قبل الأذان بلحظات وأنا التي حرصت أن يمضي الشهر بلا خطايا.. هل أرجع لـه... ماذا لو كانت أمعاؤه ملتصقة بالإسفلت.. ماذا لو كان معجوناً.. بدمائه.. تذكرت قطاً آخر كدت أدهسه في شهر فضيل أيضاً وقد كنت عائدة من لقاء حبيب الى بيتي عندما قفز أمامي ثم فر من أمام السيارة بأسلوب بهلواني رشيق وحين وصلت البيت صدمني منظر أمي وهي تتلو في قرآنها وقد حدجتني بنظرات مؤنبة وكأنها تدرك أمري وأنا خجلت من نفسي.

ظل موضوع القط الذي دهسته يؤرقني لا سيما أن طفلي راح يذكرني به.. وعندما دخل البيت أسرع يقود سيارته الصغيرة وقد ألقى على الأرض قطاً أسود اللون مصنوع من الفرو قام بدهسه ثم تحدث الى دماه (كعادته) عن الحادث وأن القط بقي وحيداً في الشارع جريحاً مما دفع بي الى العودة الى مكان الحادث بعد الافطار ولدهشتي لم أعثر له على أثر، كانت الأرض نظيفة.. بحثت في الحاوية فلم أجده وعدت إلى بيتي مضطربة إذ لا يعقل أنه نجا من تلك الضربة القاتلة.

حل العيد حزيناً لو لا شجرة اللوز البيضاء المزهرة والتي اقتربت منها لاقطف بعض الأغصان وإذا بي المح بين أغصانها قطاً أسود اللون اختفى في قمتها وأنا هرولت خائفة.

مضى شهران على الحادثة، كدت أنسى الأمر عندما كنت أقود سيارتي يوماً شرق المدينة حيث الشوارع الضيقة ورائحة محلات العطارة التي تكثر هناك. فجأة ظهر القط قفز أمامي.. تبعته صممت على اللحاق به.. اتخذ دروباً ملتوية وكأنه يعرفها وأنا اتبعه ثم فجأة وجدت ذاتي أمام المقبرة.. كيف وصلها لا أدري و أي حمى تلبستني حتى لحقت به.. وعند الجدار الاسمنتي أوقفت سيارتي وترجلت.. كنت مثل مخدرة لا أعلم اتجاهي.. تجاوز قبور الأطفال وقفز عنها ثم اتجه الى المسكبة التي تضم قبر أمي.. هناك توقفت خائفة، كانت الشجرة قد كبرت بشكل خرافي.. حدقت بها رأيتها تشبه شكلاً بشرياً.. تشبه وجه الحبيب السابق الذي لم أره منذ زمن.. فجأة صارت تشبه القط الذي قفز من خلالها الى فوهة القبر التي تسرب منها الماء كاد يغمى عليّ.. تأرجحت.. تمسكت بشاهدة القبر.. لاح لي طيف أمي مثل غيمة تحيط بي ومن داخل القبر سمعت همهمة.. وأصوات تشبه انكسار أيام حياتي في خرق بالية.

أيار/١٩٩٥م

مسكـن الصلصـال

تلك الرائحة ما زالت تنبعث مثل فوهة بركان، تطاردني، تنبعث من ريش الوسادة من قبلات زوجي الحميمة... من رائحة جسده الأشبه ما تكون برائحة الصلصال... ومعها اشعر أن كياني وروحي هـي جذوة تتوقد ثم تصير إلى رماد... قطرات ماء تنز أسمع صوتها... تتغلغل إلى طيات الطين الممتد أمام بيتنا في حقل الزيتون والتين المعرى وأوراق الشجر الخريفية، التي غطت مساحات شاسعة أمام البيت حتى بات مثل كوخ قديم مهجور وسط الغاب.. وحين تتعشقني الرائحة أشعر أن ذاتي تتحلل وأن جلدي يصير رقيقاً تظهر منه أحشائي وقلبي.. وعظامي.. فأرى بوضوح سجن الصلصال الذي تسكنه روحي، وتهتز شجرة التين العملاقة في أعماقي مُعريّة أوراقها فآخذ بالنحيب وبالبكاء...

منذ زمن لم يقترب مني زوجي.. ولم أعد صهوة الفرس التي يمتطيها عابراً بها جبال الله الكونية، المصنوعة من جليد.. موشكاً التعلق بعنان السماء فيصطدم بجدار من الصلصال ليتناثر هشاشة على سرير الأبنوس فأغرق في البكاء.

...وصوت الريح في الخارج تحيط كمحاق بالبيت المنسي الذي هو بيتنا، والذي هو في حقل واسع بأطراف المدينة حيث السكينة وحيث مقام الجد الأعظم الجاثم على تلة، وكنا نلمح النار تتقد منها، ليلاً وفي النهار مزق ورايات كأنها قمصان طفل حديث الولادة تنشرها امرأة شبقة.

كان زوجي يعمل نحاتاً.. وكنت أراه حين يلمح بعين الفنان بقعة طين صلصالية يعانقها، ينبطح أرضاً ثم يبدأ يَشتَمها ويقبلّها ويدخل في صلاة

حارة وبكاء... وبعد أيام أشاهده وقد صنع من الصلصال كائناً بشرياً.. كانت مخلوقاته غريبة لا تشبه كثيراً المخلوقات التي نعرفها.. فقد كان في وجوهها شيخوخة عميقة، وسماحة وجه طفولي.. للحظات كنت أقرأ في الوجوه أشخاصاً عرفتهم في بطون الكتب... سقراط.. توت عنخ آمون وارفيوس..، وكانت تجتمع لديه مدينة كاملة من الشخوص البشرية، وكان يبقي عليها بلونها الصلصالي.. حتى صار بيتنا أشبه ما يكون بمتحف أثري..

ما أن كنت أندس في فراشي حتى أدخل في نوم عميق، وحين كانت تمر الرياح محركة شجرة الزيزفون الملاصقة للنافذة، فتبذر عويلاً في الأفق وتنوح فأستيقظ من نومي مرتعدة وأبحث عن زوجي فلا أجده.. وأدرك أنه يباشر تماثيله.. من يدري؟ لعله يعلمها.. لعله يقرأ عليها شعر ادجار بو لعله يتلو مزامير قصيدة الغراب التي تلاها علي حين دخلت بيته لأول مرة، وكان ما حولنا عبارة عن مرج أخضر، تتلاحق فيه رؤوس السنابل والعشب الندي، حين يثير عبابها نسيم الأصيل، فتهتز متماوجة مثل ترنيمة وتريّة رائعة.. يومها عصفت الريح وكأنها حفيف ثوب ملك الموت جاء يأخذ منه زوجته.. وحين نظرتُ في عينيه كان بهما عمق بحار رهيبة.. ألقيت رأسي على صدره فانبعثت رائحة الصلصال الطيبة من جسده، لكنه أبعدني وراح يقرأ قصيدة الغراب.. وكأنها تعويذة تُقرأ على سرير طفل صغير.. لم تمض فترة طويلة حتى قرر أن يصنع لي تمثالاً من الصلصال، خلعت ثوبي واستلقيت هادئة.. اطفئ النور.. ظهر وجهه مثل إله.. فتح النافذة، دخلت شجرة الزيزفون كلها الي البيت، قال إنها شجرة كونية.. تطلعت الى الخارج كانت ليلة قمرية وقد رسم الضباب حول القمر هالة رائعة... أما الغيوم فبدت مثل جبال جليدية ترسو في أعماق الأفق وتتضافر مع أسوار الكون.. أحسست بذاتي ترتحل إلى عالم آخر.. أما هو فقد بدأ يغرق أطرافي وبطني وصدري بحفنات من الصلصال.. البارد الذي خدّرني..

ولما انتهى من صنع التمثال نهضت وهرعت الى فراشي، دفنت جسدي في دثار صوفي وبدأت أنتحب...

ظل صامتاً لكنني في اليوم التالي وبعد ما سهر طوال الليل رأيت جسدي منتصباً بين تلك الأجساد.. وفي الليل حين كنت أستيقظ وحيدة أرقب وجه زوجي كان يشبه وجه نبي وكثيراً ما تمنيت أن أصنع له تمثالاً.. كانت أمه تقول أنها ولدته على جلد ماعز أسود وعلى وجهه قناع، بينما صوت الناي الحزين يرتفع من غرفة مجاورة يغني سمفونية الأزل التي لا تفنى....

بعد صنع التمثال فترت العلاقة بيننا... لم يعد يحدثني.. لم يعد يقترب مني وشعرت بألم مقيت.. لعله مثل بجماليون يعشق تماثيله، لكن لماذا يترك النسخة الأصلية ويتبع الشبه—؟

واختفى التمثال.. ومعه تماثيل أخرى، ادعى أنه يأخذها الى صالة العرض التي يمتلكها... وبدأت أشعر بأعماقي تتمزق بغموض لا أدرك حقيقته.. وكنت أرقب بألم أوراق الشجر وهي تتساقط عن الأغصان العارية...

في إحدى الليالي داهمني القلق..كان زوجي قد قرر أن يقضي الليلة خارج البيت.. يومها اندفعت أغصان الزيزفون بوحشية تصطك بالزجاج، فيشتت وقعها النوم الصقيعي من أجفاني الباردة، فكرت أن أخرج لابعادها عن النافذة، عندما سيأتي زوجي سأطلب منه أن يقلم أغصانها فتكف عن النحيب الذي يمزق قلبي. تدثرت بمعطفي وخرجت الى الحقل.. كان صامتاً.. تذكرت الليالي القمرية التي كنا نخرج فيها للحقل حيث كان يجلس على الحجارة يداعب التراب.. ويقلّب أغصان الدالية.. سرت ببطء ثم اقتربت من الزيزفونة التي لم أقترب منها منذ زواجي إذ كان يتوجب عليّ أن أقفز على سلسلة حجارة متراكمة حتى أصلها.. وهذا ما فعلت..

وحين وصلتها رأيت أن ساقها كان يغطي نافذة ضيقة وكأنها باب قبو.. يتبعثر منه ضوء سباتي أصفر.. وقفت أحدق.. وفجأة لاحت لي التماثيل... أزحت الباب وإذا بي أمام درجات ثلاث ثم دهليز ضيق.. وغرقت في رائحة الصندل والبخور التي كان يوقدها... وقفت مندهشة وكأنني قد دلفت الي معبد قديم، كانت بعض التماثيل مهشمة وبعضها الآخر غارت قدماه في الأرض الرخوة، وثمة تمثال يداه ضارعتان للسماء.. لم أميز المشهد إذ كان يشبه مدينة من البشر، اجتاحها بركان فيزوف، فظلت في وقفتها الأبدية ضارعة في أعماق السكينة، في المنتصف تماماً كان هناك تابوت أبنوسي وكأنه مثبت في الأرض.. اقتربت منه بفضول غريب وكأني أبحث عن شيء ما فقدته منذ زمن بعيد،... أزحت الغطاء فانبعثت من التابوت رائحة أعرفها تلك التي كانت تلاحقني دائماً، نزعت الغطاء فلم أصدق ما أرى... إنه وجهي... كان تمثالي الصلصالي مسجى هنا لكن الطحالب العفنة قد بدأت تأكل الوجه.. والأصابع وامتدت إلى الساق وعرى الصلصال.. لم أصدق لعلي في حلم.. صرخت.. هل يعقل..؟ أهذه أنا هكذا إذن سأكون بعد الموت.. تلتهمني العفونة في باطن الأرض.. كانت الرطوبة تنساح على الجدران وتلتهم الصلصال.. مددت أصابعي المرتجفة لمست الساق.. يا لرعبي.. واكتشفت أن داخل الصلصال عظمة من عظامي ثم اكتشفت سُلامية.. فكرت في الهرب.. صفعني منظر نبتة عفنة خضراء.. تشبه غرسات العدس التي تزرع بكثافة في القطن قبل عيد الميلاد... تذكرت الشجرة التي صنعناها احتفاء بالعيد.. لكنا لم نكملها ولا أذكر ما الذي حدث...

الان حاول ربط كل الأمور التي حدثت.. بعد أن وضع آخر قطعة من الطين على وجهي.. حين كان يصنع التمثال... هل حقاً أفقت..؟ وعويل الشجرة..؟ وأسوار الكون الجليدية.. التي شاهدتها؟ والتراتيل التي سمعتها؟ هل حقاً تدثرت في سريري بدثار صوفي؟ أم أنني كنت ميتة فحملني إلى

هنا..؟ فأبصرت ذاتي عارية..؟ هل كان هذا سريري؟ لماذا لم يباشرني منذ زمن.. وهو الذي كان يقول أن النشوة هي سُلّم ماسّي ينقل الانسان من عالم الفناء الى عالم الخلود.. وحين يصل آخر درجات السلم يوشك أن يطل إلى جوهر الكون الرحيب، فيرتد منزلقاً إلى سجن الصلصال.. لا أدري.. إنها الرياح تعبث بنوافذ القبو الصدئة وهذا كل ما تبقى من رجع الألحان العابرة.. أحاول النهوض لا أستطيع، أشعر بثقل كبير.. أختنق... هنالك زوابع عاتية في الخارج.. وضوء القاعة يتأرجح متخافتاً، أحاول الصراخ... الاستغاثة.. أشعر أن جسدي يتحلل.. لعلي أحلم.. أو أنني في كابوس،، لكن منذ زمن لا أشعر بحقيقة الأشياء كاملة.. لعلها الفترة التي تكف فيها الروح عن التواصل مع شعلة الحياة.. لقد حان الرحيل.. فلتهدأي أيتها الروح... القلقة.. على دفة النافذة... ولتهجعي أيتها الشعلة الوهمية...

ها قد جاء زوجي... لا... بل شبح غراب أسود حط على نافذة القبو إنه يردد

نيفه مور*

نيفه مور

.....

الآن إن عاد زوجي ولم يجدني فسوف.. لكن ضوء المصباح انطفأ وغطاء التابوت أطبق فوقي.. وغرقت في الظلام...

---

* نيفه مور اختصار لكلمتي: Never more

صـدر للمؤلفـة

١- شقائق النعمان ١٩٨٩ مجموعة قصصية.

٢- اكليل الجبل ١٩٩٠ قصة طويلة.

٣-ضجعة النورس ١٩٩١ مجموعة قصصية.

٤- عـدد مـن القـصص القصيرة والمقالات الأدبيـة وقصص الأطفـال نشرت في عدد من المجلات المختلفة.

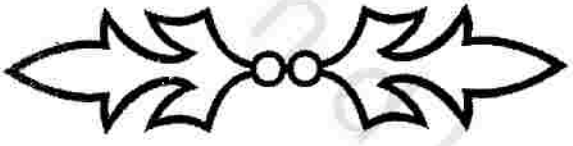

obeikandl.com

الفهـــرس

الإهداء ٣
العابث بالدمى ٥
جروة ٢١
العجوز ٢٦
الانتظار ٣٣
عامل الحانوتي ٣٧
مدينة الدمى ٤١
وجوه بين الموت والحياة ٤٩
أوراق الاوكالبتوس ٥٥
الموت الأصفر ٦٢
الجنرال ٦٧
سفينة السلام ٧٢
القط الأسود ٧٨
مسكن الصلصال ٨٢
صدر للمؤلفة ٨٧
الفهرس ٨٨